

الفصل الثاني

وينقسم هذا الفصل إلى مبحثين على النحو التالي:

أولاً: مواضع الحوار في القرآن.

ثانياً: موضوعات الحوار في القرآن.

المبحث الأول

مواضع الحوار في القرآن

عدد	الموضوع	مواضعه	مجموع الآيات
١	حوار الله مع الملائكة وآدم وإبليس	البقرة: ٣٠-٤٠	١٠
		الأعراف: ١١-٢٦	١٥
		الحجر: ٢٨-٤٣	١٥
		الإسراء: ٦١-٦٦	٥
		طه: ١١٦-١٢٥	٩
		ص: ٧١-٨٦	١٥
٢	حوار موسى مع قومه في قصة البقرة	البقرة: ٦٧-٧٢	٥
٣	حوار الله مع إبراهيم في بناء البيت	البقرة: ١٢٤-١٣٤	١٠
٤	حوار بني إسرائيل مع نبيهم وطلوت	البقرة: ٢٤٦-٢٥١	٥
٥	حوار إبراهيم مع النمرود	البقرة: ٢٥٨	١
٦	حوار الله مع الذي أماته مائة عام	البقرة: ٢٥٩	١
٧	حوار الله مع إبراهيم كيف يحيى الموتى	البقرة: ٢٦٠	١
٨	حوار زكريا مع ربه	آل عمران: ٣٨-٤٢	٤
		مريم: ٢-١٢	١٠
٩	حوار الملائكة مع مريم	آل عمران: ٤٢-٤٨	٦

عدد	الموضوع	مواضعه	مجموع الآيات
١٠	حوار موسى لقومه في دخول الأرض المقدسة	المائدة: ٢٠-٢٦	٦
١١	حوار ابني آدم	المائدة: ٢٧-٣٢	٥
١٢	حوار الله مع عيسى والحواريين	المائدة: ١٠٩-١٢٠	١٢
١٣	حوار إبراهيم مع أبيه وقومه	الأنعام: ٧٤-٨٣	٩
		الأنبياء: ٥٢-٧٠	١٨
		الشعراء: ٧٠-٩٠	٢٠
		الصفات: ٨٥-٩٩	١٤
١٤	حوار أهل الجنة مع أهل النار والأعراف	الأعراف: ٤٤-٥٢ المدثر: ٣٩-٤٨	٨ ٩
١٥	حوار نوح مع قومه	الأعراف: ٥٩-٦٥ يونس: ٧١-٧٤ هود: ٢٥-٣٥ المؤمنون: ٢٣-٣٠ الشعراء: ١٠٦-١١٩	٦ ٣ ١٠ ٧ ١٣
١٦	حوار هود مع قومه	الأعراف: ٦٥-٧٣ هود: ٦١-٦٦ الشعراء: ١٤٢-١٥٧	٨ ٨ ١٥
١٧	حوار صالح مع قومه	الأعراف: ٧٣-٨٠ هود: ٦٦-٦١ الشعراء: ١٤٢-١٥٧ النمل: ٤٥-٤٨	٧ ٥ ١٥ ٣

عدد	الموضوع	مواضعه	مجموع الآيات
١٨	حوار لوط مع قومه والملائكة	الأعراف: ٨٥-٨٠ هود: ٨٢-٧٧ الحجر: ٧٢-٦١ الشعراء: ١٦١-١٧٠ النمل: ٥٤-٥٧ العنكبوت: ٢٨-٣١	٥ ٥ ١١ ٩ ٣ ٣
١٩	حوار شعيب مع قومه	الأعراف: ٨٥-٩٤ هود: ٨٤-٩٤ الشعراء: ١٧٧-١٨٩	٩ ١٩ ١٢
٢٠	حوار موسى مع فرعون وقومه والسحرة	الأعراف: ١٠٤-١٣٦ الإسراء: ١٠١-١٠٣ طه: ٤٧-٧٧ الشعراء: ١٠-٦٤ القصص: ٣٦-٣٩ النازعات: ١٦-٢٦	٣٢ ٢ ٣٠ ٥٤ ٣ ١٠
٢١	حوار موسى مع قومه	الأعراف: ١٣٨-١٤٠ يونس: ٧٥-٨٣	٢ ٨
٢٢	حوار موسى مع ربه في طلب الرؤية	الأعراف: ١٤٣-١٤٥	٢
٢٣	حوار موسى مع هارون والسامري	الأعراف: ١٥٠-١٥٢ طه: ٨٦-٩٩	٢ ١٣
٢٤	حوار نوح مع ربه في شأن ابنه	هود: ٤٥-٤٩	٤
٢٥	حوار إبراهيم مع الملائكة	هود: ٦٩-٧٤ الحجر: ٥٢-٦١	٥ ٩

عدد	الموضوع	مواضعه	مجموع الآيات
		العنكبوت: ٣١-٣٣	٢
		الذاريات: ٢٥-٣٥	١٠
٢٦	حوارات قصة يوسف . « ٢٠ موقفا »	يوسف: ٤-١٠١ « ٢٠ موضعا »	٩٧
٢٧	حوار الرسل مع أقوامهم	إبراهيم: ٩-١٤	٥
٢٨	حوار أهل الكهف	الكهف: ١٠-٢١	١١
٢٩	حوار صاحب الجنتين	الكهف: ٣٤-٤٤	١٠
٣٠	حوار موسى مع فتاه والخضر	الكهف: ٦٠-٨٣	٢٣
٣١	حوار ذي القرنين	الكهف: ٨٦-٩٩	١٣
٣٢	حوار مريم مع الملك وقومها	مريم: ١٧-٣٤	١٧
٣٣	حوار إبراهيم مع أبيه	مريم: ٤٢-٤٩	٧
٣٤	حوار موسى مع ربه في شأن رسالته	طه: ١١-٤٨ النمل: ٧-١٣ القصص: ٢٩-٣٦	٣٧ ٦ ٧
٣٥	حوار النبي مع المشركين	المؤمنون: ٨٤-٩٠	٦
٣٦	حوار الله لأهل النار	المؤمنون: ١٠٥-١١٦	١١
٣٧	حوار سليمان مع النملة والهدد	النمل: ١٨-٢٩	١١
٣٨	حوار ملكة سبأ مع قومها	النمل: ٢٩-٣٦	٧
٣٩	حوار سليمان مع الرسل وملئه وبلقيس	النمل: ٣٦-٤٥	٩
٤٠	حوار موسى مع اليهودي والقبطي وابنتي مدين وأبيهما	القصص: ١٥-٢٩	١٤
٤١	حوار قارون مع قومه	القصص: ٧٦-٨١	٥

عدد	الموضوع	مواضعه	مجموع الآيات
٤٢	حوار المستكبرين والمستضعفين في النار	سبأ: ٣١-٣٤ الصفات: ٢٧-٣٣ غافر: ٤٧-٤٩	٣ ٦ ٢
٤٣	حوار أصحاب القرية مع المرسلين والرجل المؤمن	يس: ١٤-٢٦	١٢
٤٤	حوار أهل الجنة	الصفات: ٥١-٦١ الطور: ٢٥-٢٩	١٠ ٤
٤٥	حوار إبراهيم مع ابنه	الصفات: ٩٩-١٠٦	٧
٤٦	حوار داود مع الخصمين	ص: ٢٢-٢٤	٢
٤٧	حوار الملائكة مع أهل الجنة والنار	الزمر: ٧١-٧٥ غافر: ٤٩-٥١ الملك: ٨-١١	٤ ٢ ٣
٤٨	حوار مؤمن آل فرعون مع قومه	غافر: ٢٨-٤٥	١٧
٤٩	حوار أهل النار مع جلودهم	فصلت: ٢٠-٢٢	٢
٥٠	حوار المخلفين من الأعراب	الفتح: ١١-١٧	٦
٥١	حوار القرين مع قرينه عند الله	ق: ٢٣-٣٠	٧
٥٢	حوار المنافقين والمؤمنين	الحديد: ١٣-١٦	٣
٥٣	حوار المجادلة	المجادلة: ١	١
٥٤	حوار النبي مع بعض أزواجه	التحريم: ٣	١
٥٥	حوار أصحاب الجنة المانعين للمساكين	ن: ١٧-٣٣	١٦
المجموع			١١٧ موضعاً
			٩٧٠

المبحث الثاني موضوعات الحوار في القرآن الكريم

مدخل:

لقد بعث الله نبيه محمداً ﷺ للناس كافة من زمان بعثته إلى قيام الساعة، وأنزل إليه كتابه ليكون منهجه في دعوتهم أجمعين، وجعله معجزة معه ومع كل من يحمله من أتباعه من بعده، وتكفل الله تعالى بحفظه ليبقى معروضا على جميع من يأتي بعده إلى قيام الساعة لتظل به حجة الله على الناس باقية، وليضمن به بقاء نور هداية الله لكل حي، ولا يُحرم من هذا الخير أحد.

وقد أودع الله تعالى في كتابه الحق كله. قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَهُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مَبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الكهف: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَيُّبُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٨]. بل حصر فيه الهداية كل الهداية فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٧١]. فالقرآن كله هدى، والهدى كله في القرآن، فهو كتاب حق وهداية، فصل الله تعالى فيه كل ما يحتاج إليه الناس قاطبة، ولذا قال عنه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٣]. وقال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

وهذا التبيان وهذا التفصيل شمل جميع الأزمان الماضي منها والحاضر والمستقبل، كما جاء ذلك في حديث النبي محمد ﷺ عن وصف القرآن حيث قال: «ألا إنها ستكون فتن». قلنا: وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله تعالى، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره

أضله الله...»^(١).

وجُل هذا التفصيل جاء في صورة حوار، لذا جاءت موضوعات الحوار في القرآن ثرية وشاملة للماضي والمستقبل والحاضر بكل ما يحتاج الناس إليه، فحاور أصحاب الحضارات من الأمم السابقة من خلال حوار أنبياء الله الذين أرسلوا إليهم معهم، بل بيّن من خلال الحوار ما يقوم ويرشد به من جاءوا بعدهم ومن سلكوا سبيلهم، وحاور كذلك كل من نزل القرآن الكريم في زمانهم من أصحاب الحضارات ومن غيرهم من مدعى الحضارة ومن المنافقين ومن كل طوائف البشر ممن عاصروا الوحي وعمن يأتي بعدهم، فحذرهم من مغبة اتباعهم لمسالك من سبقهم بعد أن بيّن لهم عوارها، ورد على أكاذيبهم وشبههم، والتي دارت حول: أ - أصول الإيمان الستة، وهي: «الإيمان بالله ووحديته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر» وهذه كلها سيتم إن شاء الله الحديث عنها تحت بند «١» معرفة الإله وما له حقوق وكيفية أدائها. ب- الشرائع. وهذه إن شاء الله سيتم شرحها تحت بنود ثلاثة وهي: ١- معرفة الإنسان نفسه وكيفية التعامل معها. ٢- معرفة الإنسان من حوله من البشر وكيفية التعامل معهم. ٣- معرفة الإنسان ما حوله من الخلائق غير البشر وكيفية التعامل معهم، وهذا ما سنراه إن شاء الله تعالى في هذا الفصل الأهم من هذه الرسالة.

والمتدبر في القرآن يجد أن احتياجات الناس تنحصر في أربعة أمور رئيسة، هي موضوعات الحوار في جميع الأزمان والأوقات، وهي التي حاور الأنبياء فيها من أرسلوا إليهم من أصحاب الحضارات عبر العصور، ولأنها موضع تكذيبهم وإثارة الشبه حولها، وهي:

- ١- معرفة الإله الخالق وأداء ما له من حقوق وما علينا من واجبات.
- ٢- معرفة الإنسان نفسه وكيفية التعامل معها.
- ٣- معرفة الإنسان بمن حوله من البشر وكيفية التعامل معهم.
- ٤- معرفة الإنسان بكل ما حوله من خلائق غير الإنسان وكيفية التعامل معهم.

(١) رواه الإمام الترمذى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً، باب ما جاء في فضل القرآن رقم (٣١٥٣)، ورواه الدارمي والبخاري، وفي مصنف البزار وابن أبي شيبة، وقال الترمذى فيه مجهول وقال الألباني في تحريجه للترمذى ضعيف وهو حديث حسن في أصح الأقوال.

فهذه الموضوعات الأربعة تشمل جميع صور التعامل التي يحتاج الإنسان إليها، فليس للإنسان من أحد يتعامل معه غير ربه الذي خلقه وأدار ودبر الكون من حوله، ثم مع نفسه التي بين جنباته بما فيها من قلب ونفس وهوى، ثم مع الناس من حوله القريب منهم والبعيد، الكبير منهم والصغير، الذكر منهم والأنثى، العدو منهم والصديق، ثم التعامل مع جميع من وما يحيط به من الخلائق الظاهر منها، كالدواب والأرض والسموات، والخفي منها، كالملائكة والجن والشياطين.

والقرآن الكريم قد فصل للناس هذه الموضوعات الأربعة من خلال ذكره لتاريخ البشرية وخاصة أصحاب الحضارات منهم، وكيف كانت مواقف الناس منها كأهل الفهم والعلم والعقل من الأنبياء والحكماء والصالحين، وكأهل الجهل والعتو والطغيان من الكفرة والمشركين والمنافقين ومن نحا نحوهم.

ثم عمد القرآن إلى واقع الناس في زمان البعثة وما بعدها، وفصل قواعد التعامل وآدابه وحاوور من زعموا أنهم أصحاب حضارة فاقت في نظرهم غيرها من الحضارات، فجاد لهم ورد على شبهاتهم ومفترياتهم ليشوبوا إلى رشدهم وينتهوا عن غيهم وليتعاشوا مع بعضهم، ولتسلم لهم دنياهم وليسلموا فيها من ظلم بعضهم بعضاً.

ثم عرض القرآن الكريم ثمرات تعاملات الناس ومصائرهم وما يدور بينهم من حوارات ومجادلات في المستقبل القريب منه، كوقت نزول عذاب أو عقاب من الله لهم على ما قدمت أيديهم، أو في المستقبل البعيد -يوم القيامة- حين تظهر لهم نتائج تعاملاتهم حسننها وقيبحها.

لذا قسمت هذا المبحث إلى أربعة مطالب -وهي الموضوعات الأربعة السابق ذكرها- وهي:

المطلب الأول: معرفة الإله الخالق وأداء ما له من حقوق وما علينا من واجبات.

المطلب الثاني: معرفة الإنسان لنفسه وكيفية التعامل معها.

المطلب الثالث: معرفة الإنسان للبشر وكيفية التعامل معهم.

المطلب الرابع: معرفة الإنسان بكل ما حوله من الخلائق غير الإنسان وكيفية التعامل معهم.

المطلب الأول

معرفة الإله الخالق وأداء ما له من حقوق وما علينا من واجبات

تمهيد:

مما لا شك فيه أن الله تعالى خلق الإنسان وهو أعلم بقدراته وطاقاته من علمه هو بنفسه، قال تعالى: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٣-١٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٥-٦].

وقد بين تعالى في كتابه مدى ضعف الإنسان وعجزه وعدم قدرته على إدراك قدر الإله الذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقال تعالى: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٤].

فهذه مصيبة المصائب وبلية البلايا أن الناس على مر العصور لم يعرفوا قدر الإله الذي خلقهم، فتصوروا في حقه تصورات لا تليق بجلاله وقالوا في حقه ما لا يليق بقدره.

فمن جاعل إلهه بشراً، ومن جاعل إلهه حجراً، ومن جاعل إلهه شجراً، أو قمراً أو نجماً أو شمساً أو هوى، ومن واصل لإلهه بالعجز أو بالجهل أو بالبخل أو بالظلم أو بغير ذلك من ذميم الصفات التي لا يرضاها الإنسان لنفسه أو حتى لغيره من البشر، والبشرية كانت على ذلك وما زالت حتى يومنا هذا تسبب الله كل ذلك إلا من رحم ربك وقليل ما هم، فأكثر من

خمسة مليون الآن يعبدون بوذا الصنم، وهم أصحاب حضارة مادية، ففي اليابان تقدم مادي مذهل وفي غيرها ممن يعبدون بوذا الصنم، وأكثر من خمسمائة مليون من الهنود وغيرهم ممن صنعوا القنبلة وغيرها وما زالوا يعبدون البقر، بل إن من زعموا أنهم أعلم الناس وأعقلهم وأعظمهم فكرا وهم الفلاسفة بعد طول معاناة وفكر في الطبيعة وفيما وراء الطبيعة فغاية ما وصلوا إليه أنهم انقسموا في حق الإله تعالى؛ فمنهم من أنكر وجوده وكفر به وجحده، ومنهم من أقر بأن للخلق خالقا وللكون مدبرا عظيما لكنهم ما قدروه حق قدره، فلا عرفوا له حقا ولا أدوه له بحق، ولا عرفوا يوما واجبهم نحوه.

وحتى أهل الكتاب ممن نسبت كتبهم إليه تعالى بعد أن اعترأها التبديل والتحريف والتغيير فقد نسبوا إليه فيها الشيء الكثير مما لا يليق به؛ فمنهم من نسب إليه الولد، ومنهم من جعل له نداء، ومنهم من جعله جزءا أو أقنومًا^(١) من ثلاثة أقانيم ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان، ومنهم من صورته نائما أو جاهلا أو غافلا أو عاجزا أو بخيلا أو غير ذلك مما لا يليق بجلاله وجماله وكماله، ثم نسبوا هذا كله إليه وإلى وحيه المنزل من عنده فجعلوه نصا أو فهما لنص في كتابه، وكل ذلك يدل على شدة جهل الإنسان بربه وعدم تقديره له، ومع ذلك رب العباد اختاره من بين مخلوقاته وكرمه وحمله أمانته ووحيه واصطفاه لعمارة أرضه واستخلفه فيها، وفي هذا قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. حملها مع جهله وعلمه المحدود الذي لا يتجاوز ما ترى عينه أو تسمع أذنه أو يتخيل قلبه، وكلها ملكات محدودة، وثمراتها علوم قاصرة لا تتجاوز بعض ظواهر الحياة الدنيا، وصدق تعالى إذ يقول: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ

(١) الأقانيم جمع أقنوم وهو عندهم الشيء المستغني بذاته عن أصل جوهره في إقامة خاصة جوهرية - كتاب الإعلام بما في دين النصارى - (١/٦١)، وقال ابن القيم: هو إله تام وإنسان تام معروف بطبيعتين ومشيئتين وفعلين أقنوم واحد - هداية الحيارى (١/١٤٦)، وقال صاحب أعلام النبوة: اختلفوا في الأقانيم فقال بعضهم هي خواص وقال بعضهم هي أشخاص وقال بعضهم هي صفات. أعلام النبوة (١/٢٠).

غَفْلُونَ ﴿ [الروم: ٦-٧]. فحصر علم البشرية في بعض ظواهر الحياة الدنيا.

والمدقق البصير يرى حقيقة ذلك وأن علم البشرية ينحصر في بعض مظاهر الحياة الدنيا و«من» في الآية السابقة تبعية، أي بعض ظواهر الحياة الدنيا، والقرآن الكريم يبرهن على ذلك في مواضع عدة منه، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

المثال الأول: قول الله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ [التكوير: ١٥-١٦].

فكلنا نرى النجوم ليلاً مع الظلام الدامس تملأ صفحة السماء فأين هي بالنهار مع اتضاح الرؤية وشدة النور، بل لو كنا في الليل المظلم والنجوم تملأ صفحة السماء وأشعلنا عود كبريت أو نار لغاب عن بصرنا الكثير من النجوم، فمجرد شعاع من نور حال بيننا ورؤية الكثير من النجوم فكيف بنور الشمس إذا سطع؟ لم نعد نرى وراءه شيء، ولذا أقسم الله تعالى في الآية «بالخنس الجوار الكنس»: «أي النجوم التي تظهر لنا ليلاً ثم تخنس وتغيب عنا نهاراً»^(١).

المثال الثاني: قول الله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴿١٤﴾

صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴿١٥﴾ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿١٦﴾ [النمل: ١٤-١٦]. فظاهر الجبال عند الناس أنها جامدة ثابتة راسخة، وحقيقة أمرها أنها تدور مع دوران الأرض بسرعة تفوق سرعة السحاب، وعدم إدراكنا وعدم رؤيتنا لذلك بسبب ضعفنا وضعف قدراتنا، وهذا الضعف فينا وفي قدراتنا من ألطاف الله تعالى بنا؛ فلو تخيل الإنسان منا أنه امتد وطال حتى صار يرى أطراف الكرة الأرضية وهي تدور لأصابه دوار لا يستطيع معه سعى ولا عمل ولا عمار في الأرض، فمن رحمة الله تعالى بنا أننا لا نرى إلا جزءاً صغيراً من الأرض وهو الذي تستطيع أعيننا رؤيته، نراه ثابتاً مستقراً حتى نستطيع السير والعمل والعمار في الأرض. وقدماء المفسرين كالإمام الطبري والقرطبي والبعوي وابن كثير وغيرهم قد ذكروا أن مرور الأرض كالسحاب يقع يوم القيامة. قال الإمام الطبري في تفسيره: «يقول تعالى ذكره: وتري الجبال يا محمد تحسبها قائمة وهي تمر، كالذي حدثني علي قال: ثنا أبو صالح قال: ثني معاوية عن علي عن ابن عباس قوله: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴿١٤﴾ يقول: قائمة، وإنما قيل:

(١) تفسير فتح للشوكاني (٧/٤٢٩) حكاه عن قتاده.

﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ لأنها تجمع ثم تسير فيحسب رائيتها لكثرتها أنها واقفة وهي تسير سيرا حثيثا كما قال النابغة الجعدي:

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج (١)

والراجع أنها في الدنيا قبل الآخرة لأن يوم القيامة لا يوجد أحد يرى مرورها، ولا جبال جامدة بعد النفخ في الصور، وقوله: ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وأوثق خلقه^(١)، ويوم القيامة يهدم فلا يقال أحسن كل شيء هدمه.

المثال الثالث: قول الله تعالى: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

فالنفس البشرية تتكون من مادة وروح، كلنا نرى المادة ونحسها ونلمسها، ولكن أين علمنا بالروح مع يقيننا بوجودها فينا، وأنها لو خرجت منا لتحولت أجسادنا إلى جثة هادمة لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعاً، ولذا قال تعالى: ﴿ وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

فدلت هذه الآية وغيرها على ضعف علمنا عن الإحاطة بالمادة من حولنا، فأنى لنا الإحاطة بخالق المادة وهو غيب عن حواسنا لا تدركه أبصارنا! قال تعالى: ﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ولا تسمعه آذاننا ولا تلمسه أيدينا ولا تدرك قدره خيالنا وعقولنا وحدها دون بيان منه، وفي حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أتى أراه»^(١). ولولا بيان الله تعالى لنا وإنزاله الكتب وإرساله الرسل ما عرفنا لهذا الإله العظيم

(١) قاله النابغة الجعدي في وصف الجيش ذكر ذلك الطبري والقرطبي والنسفي والألوسي وغيرهم من المفسرين وذكره ابن منظور في لسان العرب وغيره من أصحاب المعاجم.

(٢) تفسير الطبري (٢١ / ١٠).

(٣) رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه في كتاب الإيمان باب قوله عليه السلام «نور أتى أراه» رقم (١٧٨)، والترمذي في التفسير رقم (٣٥٩٣) وقال حسن، وفي مسند أحمد رقم (٢١٩١٩، ٢٢٠٠٠) وغيره من المواضع، والحديث صحيح لوروده في صحيح مسلم.

قدره؛ والله در أبى بكر الصديق حين سُئل كيف عرفت ربك؟ فأجاب: «عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي، العجز عن الإدراك إدراك والبحث في ذات الله إشراك»^(١). بل إن محمدا رسول الله ﷺ مع أنه أعلم الخلق بالله وبصفاته ومحبوباته إلا أنه إذا أراد الثناء على ربه كان يقول: «سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٢). ليدلنا على أنه لا يُقدر قدرَ الله تعالى أحدٌ غيره، حتى الثناء عليه ومدحه لا يقوى عليه سواه، مع أنه ﷺ هو الذي علمنا أن الله تعالى يحب الثناء ولذا أثنى على نفسه، ومع ذلك لا طاقة له عليه السلام بالثناء عليه إلا من خلال وحيه وما علمه ربه سبحانه تعالى.

فمن رحمة الله تعالى علينا ولطفه أن تجلى من عليائه من فوق عرشه وسماؤه وخاطبنا نحن الضعفاء من خلقه فعرّفنا بذاته، ويّين لنا جميل صفاته، وعلمنا حقه علينا، وكيف نقدر له قدره، بل علمنا قدرنا عنده، وعرفنا حقيقة دورنا في الدنيا، وكيف كلفنا بعمارتها، ففصل لنا تكاليفه وتعليقاته في صورة أوامر ونواهٍ، جعل فيها صلاحنا وعمارة الأرض من تحتنا ومن حولنا، وسعادة كل ما على ظهرها باستقامتنا على منهجه تعالى وشريعته.

لقد دعانا الحق تبارك وتعالى بما أوحاه إلى نبيه ﷺ للإيمان به وهو غيب عنا حتى لا تقوم حواجز الحس والمادة دون الاتصال بين أرواحنا والقوى الكبرى التي صدرت عنها وصدر عنها هذا الوجود، ولا تقوم حواجز الحس بين أرواحنا وسائر ما وراء الحس من حقائق وقوى وطاقات وخلائق وموجودات.

«فالإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس - أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس - وهي نقلة بعيدة الأثر في

(١) نسب هذا القول للصديق ونسب لذي النون وورد ذلك في إيقاظ الهمم شرح متن الحكم (١/ ١٨٠)، (٣٠١)، مختصر تاريخ دمشق (٣/ ١٣٤).

(٢) رواه مسلم عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود رقم (٤٨٦)، أبو داود رقم (٨٧٩)، كتاب الصلاة، والوتر (١٤٢٩)، والترمذي في الدعوات رقم (٣٨٣١)، والنسائي في الطهارة رقم (١٧٠)، وابن ماجه في الدعاء رقم (٣٩٧٣)، وغيرهم

تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير. كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض، فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديته وبصيرته، ويتلقى أصداؤه وإجاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود، وأن وراء الكون ظاهره وخافيه حقيقة أكبر من الكون هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده، حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول.

وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له، وما لم توهب القدرة للإحاطة به، وما لا يجدي شيئاً أن تنفق فيه. إن الطاقة الفكرية التي وهبها الإنسان، وهبها ليقوم بالخلافة في هذه الأرض، فهي موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة، تنظر فيها، وتعمقها وتقصاها، وتعمل وتنتج، وتنمي هذه الحياة وتجملها، على أن يكون لها سند من تلك الطاقة الروحية التي تتصل مباشرة بالوجود كله وخالق الوجود^(١)، وعلى أن تدع للمجهول حصته في الغيب الذي لا تحيط به العقول. فأما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة بحدود هذه الأرض والحياة عليها، دون سند من الروح الملمم والبصيرة المفتوحة، وترك حصة للغيب لا ترتادها العقول، فأما هذه المحاولة فهي محاولة فاشلة أولاً، ومحاولة عابثة أخيراً. فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال. وعابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال. ومتى سلم العقل البشري بالبدئية العقلية الأولى، وهي أن المحدود لا يدرك المطلق، لزمه -احتراماً لمنطقه ذاته- أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل، وأن عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون، وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل، وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن، والغيب والشهادة. وهذا الاحترام لمنطق

(١) لا يعني الاتصال المباشر بالخالق ما عناه من قال بوحدة الوجود، وإنما يعني اتصال تذلل واستسلام وانقياد وعبودية للروح سامية تتعامل فيه الروح مع خالقها بقوانين الروح والإيمان بالغيب لا بقوانين المادة والحس وحدها.

العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلّى به المؤمنون، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين.

لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمية. ولكن جماعة الماديين في كل الزمان، كجماعة الماديين في كل زمان يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقري إلى عالم البهيمية الذي لا وجود فيه لغير المحسوس! ويسمون هذا «تقدماً» وهو النكسة التي وقى الله المؤمنون إياها، فجعل صفتهم المميزة صفة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ والحمد لله على نعائمه، والنكسة للمتكسبين والمرتكسين»^(١).

ومن كرم الله علينا أن راعى ضعفنا. قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]. وراعى جهلنا وخاصة بقر ما تحملناه فقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. فلم يدعنا لجهلنا وعجزنا وظلمنا فأرسل إلينا رسله، وأنزل عليهم كتبه، بل ساق لنا الأدلة والبراهين الدالة على وجوده، وكذلك الدالة على وحدانيته وتفردته، والدالة كذلك على كمال صفاته العلى وأسائه الحسنى، بل ساق لنا من الأدلة والبراهين والمعجزات ما يثبت لنا صدق أنبيائه ورساله، وصدق ما جاءوا به من كتب من عند الله، وسرد من الأدلة والبراهين ما يورث القلوب اليقين بلقائه بما فيه من أحداث جسام وانقلاب كوني وحساب للعباد وسؤال على كل ما كسبوا وما اكتسبوا حتى مثاقيل الذر من أعمالهم. قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. بل أمرنا بالإيمان بملائكته الحفظة منهم والكتابة وحملة العرش وغيرهم ممن لهم دور كبير في حياة البشر وإدارة شؤون هذا الكون المحيط بنا، وعلمنا تعالى ما نحتاج إليه من أمور القدر وقواعد التدبير لهذا الكون بما فيه بمن فيهم الإنسان نفسه، فجمع لنا بذلك أصول الإيمان الستة، والتي وردت في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في

(١) في ظلال القرآن (١/٣٩-٤٠).

الصحيح حيث رواه مسلم فقال بسنده: «عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ^(١) قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدْرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبُدُ الْجَهَنِيِّ^(٢) فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَحَمِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَمِيرِيُّ^(٣) حَاجِبِينَ أَوْ مُعْتَمِرِينَ فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدْرِ. فَوْقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ فَكَتَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرَ عَنْ شِمَالِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكُلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ فَقُلْتُ: أبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَرَّوْنَ^(٤) الْعِلْمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَتَمَّهُمْ يُزْعَمُونَ أَنَّ لَا قَدَرَ وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنْفُ. قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أَوْلِيكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَتَمَّهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي، وَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ. ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدٌ بِيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدٌ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يَرَى عَلَيْهِ أَثَرَ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا

(١) يحيى بن يعمر البصري، أبو سليمان ويقال أبو سعيد ويقال أبو عدي نزيل مرو وقاضيا تابعي من الطبقة الوسطى قبل ١٠٠ هـ، روى له أصحاب الكتب الستة ووثقه ابن حجر والذهبي.

(٢) معبد الجهني تابعي روى عن عمر وعثمان وحذيفة وطائفة من الصحابة وهو مرسل لم يلقيهم، وهو أول من تكلم في القدر بعد رجل نصراني يقال له سوسن، وأخذ غيلان عن معبد، فقتله الحجاج.

(٣) حميد بن عبد الرحمن الحميري البصري، تابعي من الطبقة الوسطى روى له أصحاب الكتب الستة ووثقه ابن حجر وقال الذهبي قال بن سيرين هو أفقه أهل البصرة.

(٤) يتقرون العلم: يطلبونه ويتبعون أثره فيقال فلان يتقفر الشيء إذا طلبه واجتهد في البحث عنه، وقيل يجمعونه، والبعض قدم الفاء على القاف أي يتقرون والأصح الأول.

المُسْتَوَّلُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ: «أَنَّ تَلْدَ الْأُمَّةِ رَبَّتَهَا» (١) وَأَنَّ تَرَى الْحَفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟». قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَنَا كُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» (٢). وجل هذه الأمور سبقت في صورة حوارات ليأخذ الحق تبارك وتعالى من خلالها بنواصي العباد إلى الحق وإلى طريقه المستقيم ويخرجهم من الظلمات إلى النور. قال تعالى: ﴿الرَّ كِتَدِبْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]. وقد عرض القرآن الكريم هذه الأمور كلها من خلال الزمن كله؛ الماضي من خلال قصص الأنبياء وحواراتهم مع أقوامهم وهم أصحاب الحضارات في زمانهم، ومن خلال بعض الأحداث التاريخية، والحاضر من أفعال العباد وشبهاتهم ومحاورتهم والرد عليهم وتصحيح تصوراتهم ومعتقداتهم، والمستقبل من خلال مواقف العباد يوم القيامة وما بعدها من نعيم أو عذاب في صورة حوارات بين الرسل وأقوامهم، أو بين المؤمنين وبعضهم، أو مع الكفار وأهل النار، أو بين الكفار بعضهم مع بعض ممن كانوا أصحاب حضارات في زمانهم، وبيان ذلك فيما يأتي:

١- الحوار في إثبات وجود الله ووحدانيته.

أولاً: الحوار في إثبات وجود الله.

من أهم موضوعات الحوار في القرآن الكريم موضوع إثبات وجود الله ووحدانيته، ووجود الله تبارك وتعالى حقيقة لا تقبل النقاش والجدل لأنها ضرورة تسري في الأحاسيس والمشاعر وتتغلغل في أعماق النفس الإنسانية، وبها الفطرة ناطقة، ولم يبق بعيداً عن هذه

(١) تلد الأمة ربتها: وفي رواية ربهما وفي رواية بعلمها، يعني السراري ومعنى ربهما وربتها سيدها ومالكها وسيدتها ومالكتها قال الأكثرون من العلماء هو إخبار عن كثرة السراري وأولادهم، وقيل: معناه أن الإماء يلدن الملوك فتكون من جملة رعيته وهو سيدها. وقيل: معناه أنه تفسد أحوال الناس فيكثر بيع أمهات الأولاد فيكثر ترددها بين أيدي المشتريين فيشتريها ولدها وهو لا يدري وقيل غير ذلك.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان رقم (٣٧)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر رقم (٨)، ورواه أصحاب السنن الأربعة، وأحمد، والدارقطني، والبيهقي

الساحة الربانية إلا من أغلق قلبه دون أنوار الله وأصم أذنيه عن نداءه، ونكس بفطرته وعقله وقلبه فصار يهذي وخرج عن كل المسلمات.

بل كل الدعوات والحوارات التي وجهت لكل أصحاب الحضارات على ألسنة الأنبياء وأتباعهم حاورتهم في هذا الأصل العظيم من أصول الإيمان وهو إثبات وجود الله ووحدانيته.

الحوار مع الدهريين والماديين والملاحدة من أصحاب الحضارات:

وعلى طريقة القرآن ومنهجه في الاستدلال يحاور القرآن بأسلوبه الدهريين والماديين والملاحدة من أصحاب الحضارات، ونرى كيف حطم القرآن الأغلال التي تحول بينهم وبين معرفة الله، وبقيت أدلته في إثبات وجود الله صخرة صارمة تحطمت عليها أفكار هؤلاء قديما كما تحطم عليها أفكارهم كلما جد الزمان وتقلب الملوان، كما نرى حوار القرآن لأشهر من تحدث عنهم من الملحددين والمتألهين من أصحاب الحضارات «فرعون والنمرود» وكل منهما ادعى أنه رب الناس وإله من دون الله عز وجل^(١).

«الوحي الإلهي يحدثنا عن الله تبارك وتعالى من حيث هو ذات حقيقية، وله وجود حقيقي لا يشبهه شيء، ومن ثم فهو ليس معنى من المعاني الذهنية، ولا قانوناً كالقوانين الكونية المنبثة في الأحياء والأشياء، بل كل ما خطر ببالك فالله فوق ذلك لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]»^(٢).

وهو تعالى كما وصف ذاته فقال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

هو الأول الذي كان ولم يكن معه شيء، وهو وحده الذي جاء للخلق منه كل شيء. قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تُمْرًا إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وهو الآخر بعد كل شيء، والذي يبقى ولا يبقى معه شيء كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ

(١) مناهج الجدل في القرآن الكريم للدكتور/ زاهر بن عواض الألمي (ص ١٢٥-١٢٨) بتصرف.

(٢) المنهاج القرآني في التشريع للدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد (ص ٣٢٧).

اللَّهُ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ [القصص: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿ ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وكما قال ورقة بن نوفل رضي الله عنه:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه
ولا سليمان إذ تجري الرياح له
حوض هنالك مورودٌ بلا كذب
يبقى الإله ويفنى المال والولد (١)
والخالد حاوله عادٌ فما خلدوا
والإنس والجن فيما بينها ترد
لا بد من ورده يوماً كما وردوا

وهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، فهو تعالى يعلو ولا يعلى عليه، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوفَّقُونَ ﴿ [الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿ [الأنعام: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿ [الأنعام: ٦١].

وهو الباطن الذي ليس دونه شيء، فلا يخفى عليه من أمر الخلق شيء كما قال تعالى عن ذاته: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿ [غافر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ [الأنعام: ٥٩-٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) ذكر ذلك الألوسي في تفسيره روح المعاني (١٩/١٤٩)، وعمدة القاري باب بدء الوحي (١/٦٤)، وفي الزهد الكبير للبيهقي نسب البيت الأول لعمر بن الخطاب (٢/١٨٨).

وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ هود: ١٢٣.]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [فاطر: ٣٨]،

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٨].

وقال تعالى: ﴿ عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٦٦﴾ إِلَّا مَن أَرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٦٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْتَلَوْنَا رِيسَمَ وَآحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿ [الجن: ٢٦].]

وهو سبحانه بذاته حقيقي لا يدرك بالبصر كما قال تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].
ولكنه تعالى يعرف بآثاره في كل شيء، وتقوم كل ضروب الأدلة على وجوده، وتفرد، واستحقاقه لكل صفات الكمال.

دليل وجوده:

أ- بدهة العقل: وهي عند كل إنسان قاضية أن لكل مصنوع صانعا، ولكل مخلوق خالقا، ولكل حادث موجد، والحق تبارك وتعالى يلزم الناس بتقرير هذه البدهة حيث يقول: ﴿ أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٠﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]، وقد ذكر القرآن الكريم قول نبي الله موسى لفرعون حين سأله: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٦١﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٤٩-٥٠].

والله تعالى يُلجئهم في النص الأول إلى إقرار الحق فلا يستطيع أحدهم إنكار وجوده كـمخلوق، وادعاء أن الخلق أنف وهو قول الدهريين^(١) والطبائعيين^(٢) والماديين^(٣)

(١) الدهريين: الذين ادعوا ألا إله موجود وأنهم خلقوا من ذكر وأنثى وأنهم لا يهلكهم إلا الدهر، استغنوا بها وصلوا إليه من علوم مادية وأنكروا ما وراء ذلك من الغيب والعلوم الروحية.

(٢) الطبائعيين: من نسبوا الخلق إلى الطبيعة وأنها هي التي أوجدت هذا الكون وتدبر أمره.

(٣) الماديين: أصحاب فكرة قديمة قال بها قديما ديموقريطس من الفلاسفة وسماها بمبدأ الديالكتيك أو

والملاحظة^(١) من أصحاب الحضارات على مر العصور، والحوار معهم لا يخلو من اعتراضات ثلاثة:

- ١- إما أن يكون كل شيء قد وجد من دون علة له أو سبب في الإيجاد.
- ٢- وإما أن يكون كل شيء قد أوجد نفسه، وهذان الافتراضان تمنعها بداهة العقول.
- ٣- والافتراض الثالث: أن كل شيء موجود لا بد له من موجد ينتهي إليه الخلق والتدبير وهو الله تعالى.

فثبت عن طريق هذا الحصر قيام البرهان القطعي على وجود الله تعالى وإبطال دعوى هؤلاء المنكرين، فلا يستطيع أحدهم الادعاء أنه خلق من غير شيء ولا ادعاء أنه خلق نفسه فيلزمه التسليم والاعتراف بوجود قوة عليا خلقتهم.

والنص الثاني يحملهم على الإقرار له بالخلق من خلال التباين الشديد بين الخلائق مع جمال وكمال وإحسان كل مخلوق على حدة، مضافا لذلك هدايته لأداء ما خلق من أجله، كما جاء في الحديث «كل ميسر لما خلق له»^(٢).

بل إن كل موجود دليل على وجود الموجد كما قال الأعرابي وقد سئل عن الدليل على وجود الله فقال: «إن البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، أفساء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا يدل ذلك على السميع الخبير»، وإذا كان الله تعالى وحده هو الخالق فهل يستوي الخالق بالمخلوق، قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَدَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

نظرية (ترابط الوجود) وهي فكرة الماديين المحدثين أمثال لينين الذي سماها «الدفاتر الفلسفية» كما وضع لها ستالين «المادية الجدلية والمادية التاريخية»، وقد حمل لواء هذه الفكرة كارل ماركس.

(١) الملاحظة: من أنكروا وجود اله مدبر لهذا الكون.

(٢) رواه البخاري عن عمران رضي الله عنه في كتاب قول الله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ والتوحيد رقم (٧٥٥١)، ورواه مسلم عنه في القدر باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه رقم (٢٦٤٩)، وأبو داود في السنة باب في القدر رقم (٤٧١١)، والترمذي في التفسير (٣٣٩٧)، وأحمد في مسند الصديق (٢٠).

ب- الفطرة: وهذا الدليل مركز في النفس البشرية ومقرر بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

والنبي ﷺ يقرر ذلك في حديثه حيث قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(١)، «ويؤخذ من هذا أن الله تعالى قد ركز في طبع كل إنسان وضميره وكيانه الإيمان بقوة عليا لها الهيمنة والتدبير، ولكنه بالهوى والجهل، أو بطول إلفه للباطل تنتكس فطرته ويعلوها غشاء ثقيل من الران الذي يحجب صفاءها، ويطمس نورها، ويلتوي بها عن مسارها الصحيح، ومع هذا تبقى تحت هذا الركام^(٢) لا يستطيع شيء نسخها أو إزالتها ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، ودليل ذلك أنها تظل تلح على صاحبها حتى يتخذ لنفسه معبودًا ما ولو بالباطل، ولكنه حين يجابه بنازلة عاصفة تهدد كيانه ووجوده تنجاب عنه حجب الضلالات، ويكشط الران تحت حرارة البلاء، فتجد الفطرة الكامنة فرصتها للظهور واتخاذ الطريق الصحيح»^(٣)، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَبِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُجِيتْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ

(١) الحديث رواه البخاري من حديث أبي هريرة ؓ كتاب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين رقم (١٣٥٨) وغيره، ومسلم عنه باب معنى كل مولود يولد على الفطرة رقم (٢٦٥٨) كتاب القدر، والترمذي رقم (٢٢٨٧)، وأبو داود رقم (٤٧١٦)، وفي الموطأ رقم (٥٧٥)، وأحمد، والحميدي، والبيهقي .

(٢) الركام: المتراكم وقيل الكثير وقيل الضخم وفي القرآن عن السحاب (ثم يجعله ركاما) أي بعضه على بعض .

(٣) المنهاج القرآني في التشريع للدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد (ص ٣٢٩).

صَلِدِقِينَ ﴿٤١﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّكُمْ مِنَ ظِلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لِيُنْجِنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

ج - الشعور الباطني:

إذا كان الماديون والطبيعيون من أصحاب الحضارات يتظاهرون بإنكار وجود الله فإن هذا الوجود الإلهي يفرض نفسه على أحاسيسهم ومشاعرهم ويقولون به من حيث لا يشعرون، فإنهم يقولون بتفاعل الماديات وتأثير بعضها في بعض، وهذا يعني أن الشيء لا يستقل بحركته دون مؤثر خارجي، إنهم يخضعون نظام هذا الكون لقوانين الجاذبية في تنظيم أبعاده بحيث يكون التناسب والتوازن بين الموجودات فلا يختل هذا النظام العام للكون، فكأنهم يقرون بضرورة وجود قوة تسير هذه القوى الكونية، وسواء أضافوا هذه القوة إلى قانون العلية والسببية للكون أو قانون التفاعل المادي لتلك القوى كما يرددون، فإن هذا إحساس بوجود خالق مدبر لهذا العالم ولكنهم يكابرون فطرهم وأحاسيسهم فيلجئون إلى القول بأن وجود العالم كان مصادفة واتفقا، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه بلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبدا^(١)، قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ [الأعلى: ١-٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَادَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ ﴿٦٧﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

د- كل شيء خلقه الله تعالى: كل ما خلق الله تعالى يدل عليه، فله تعالى في كل شيء آية تدل

(١) المنقذ من الضلال للأمام أبي حامد الغزالي (ص ٧٦) بتصرف يسير .

على أنه الواحد سبحانه وتعالى، لذا دعا الحق تبارك وتعالى عباده لطول النظر في كل ما خلقه تعالى من حولهم؛ فكل مخلوق لا محالة سيدهم على عظمة الخالق وجلاله وجماله. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [٦] وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨-٦﴾.

ذكر القرآن الكريم قول نبي الله هود لقومه: ﴿وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [٣٣] أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيِّنٍ ﴿٣٤﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٤]، وقول نبي الله صالح لقومه: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وهذا النظر مع الفكر أحد مورثات اليقين. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

بل إن النبي محمداً ﷺ يعلمنا أن كل شيء خلقه الله تعالى فيه من آيات الله ما يدعو لتسبيح الله وتحميده وتوحيده وتكبيره ونسبة الحول والقوة له وحده تعالى، لذا كان الحبيب ﷺ يقول إذا أصبح وإذا أمسى كل يوم: «سبحان الله عدد ما خلق في الأرض وعدد ما خلق في السماء وعدد ما خلق بين ذلك وعدد ما هو خالق، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، والله أكبر مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك»^(١).

والمقصود في الحديث ليس مجرد العدد بل المقصود أن له تعالى من الآيات في كل مخلوق ما يدعو لتسبيحه وتحميده وتوحيده وتكبيره ونسبة الحول والطول والقوة له وحده عز وجل.

(١) الحديث رواه أبو داود عن سعد بن أبي وقاص ﷺ في كتاب الوتر باب التسبيح بالخصى رقم (١٥٠٢)، والترمذي عنه في الدعوات رقم (٣٩١٢)، والبيهقي وابن حبان والحاكم في المستدرک وقال صحيح، والبزار وأبو يعلى.

قال أبو العتاهية:

ولله في كل تحريكة وتسكينة في الورى شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد (١)

وإذا نظرنا إلى النصوص القرآنية لم نجد هدفها يوماً من الأيام إثبات وجود الله تعالى لأن الإيمان بوجود الله ضرورة حتمية وبدهية، ولعلنا نلمح هذه الحقيقة ونحن نرى القرآن الكريم وهو يرد على هؤلاء الملحدین بصرف النظر عن ادعائهم الكاذب المبني على الجهل ولا يناقشهم في جهلهم وتفاهة تفكيرهم، إنما يهددهم وهو يرسم لهم مشهداً مرعباً وهم معروضون أمام الله جاثون مع الجاثين منتظرون ساعة الفصل، يقول القرآن: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجُبَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّنُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلِ اللَّهُ مُخَيِّمٌ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِدُ بِخَسِرٍ الْمُبْطِلُونَ ﴿٣١﴾ وَتَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِعَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ [الجنّة: ٢٤-٢٨].

بل إن آيات سورة الجنّة إلى آخرها لا تكتفي بالرد على دعوى الدهريين فحسب، ولكنها تمضي في تهديدهم بتصوير مشاهد القيامة المفزعة، وأنهم لا يخرجون من النار ولا يستعتبون؛ وما ذلك إلا لأن هذا الوهم محض كبرٍ مسيطر على النفوس، أعمى الفطرة عن الاعتراف بحقيقة الوجود الإلهي مما جعل السورة تختم بهذا القول الجامع: ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٦﴾ [الجنّة: ٣٦-٣٧].

والإمام الشهرستاني يلخص مدعائهم في قولهم: ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي، وقصراً للحياة والموت على تركيبها وتحللها، فالجامع

(١) ديوان أبي العتاهية (ص ١٢٢).

هو الطبع، والمهلك هو الدهر^(١).

أما دعوى هؤلاء الدهريين بأنه ليس هناك خالق موجود، وأنهم وجدوا في الحياة عن طريق التوالدين الذكر والأنثى، وسيموتون بفقدان الحياة عندما يتعرض الواحد منهم لشيء من نوازل الدهر، فمثل هذه الدعوى رد عليها القرآن ورد تلك المقدمات التي أوردوها دليلاً لدعواهم. فقد رفض مقدماتهم بأمرين:

(١) بنفي العلم عنهم فيما يتعلق بهذا الادعاء كما قال القرآن ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الجنّة: ٢٤]، والنفي هنا يفيد العموم لأنه نكرة في سياق النفي فيعم.

(٢) إثبات الظن والتخّص في دعواهم ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيِقِّينَ ﴾ [الجنّة: ٣٢].

﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم: ٢٨].

فقد نفى القرآن الكريم أن تكون دعواهم مستندة إلى دليل، وإذا فقد الدليل في الدعوى أو طعن فيه بشيء من المطاعن المعتبرة سقط الاستدلال به، وإذا منعت المقدمة بطلت النتيجة. كما رد عليهم القرآن في غير هذه الآية بإثبات وجود الله عن طريق البراهين القطعية^(٢).

ومن لطائف المناظرات التي وقعت مع بعض الدهريين ما يحكى عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى أن قوماً من أهل الكلام أرادوا البحث معه في تقرير وجود الله تعالى، فقال لهم: «أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة، عن سفينة في نهر دجلة تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها وتعود بنفسها فترسى بنفسها وتفرغ وترجع كل ذلك من غير أن يدبرها أحد». فقالوا: هذا محال لا يمكن أبداً، فقال لهم: «إذا كان هذا محالاً في سفينة، فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله». وينسب هذا إلى غير أبي حنيفة^(٣).

(١) الملل والنحل للشهرستاني (٢/٢٣٥) بتصرف.

(٢) مناهج الجدل في القرآن الكريم للدكتور / زاهر عواض الألمي (ص ١٣٠).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٢١).

وإذا تأملت فيما يحيط بك من الموجودات الظاهرة عرفت عن طريق الضرورة الحتمية بأن هذا العالم لم يكن وليد المصادفة والاتفاق وإنما وجد بقدره قادر وحكمة مدبر فاعل، ألا ترى أنك لو نظرت إلى لوحة جميلة قد رسمت عليها مناظر خلابة ألا يتبادر إلى ذهنك أن هذه اللوحة قد مرت عليها يد فنان خبير بتناسق الألوان والأذواق؟! أما أنها قد رسمت نفسها بنفسها ووجدت على هيئتها ابتداء بطريق المصادفة؟! فإن هذا ما لم يقل به أحد.

ولو نظرت إلى قصر مشيد قد تناسق بناؤه وأحكمت أركانه ألا يتبادر إلى ذهنك بأن هذا تصميم مهندس بارع في الهندسة المعمارية؟ أم ترى أن هذا القصر وجد على هيئته بطريق الاتفاق؟ أم أوجدته عوامل الطبيعة؟ أم لا بد من تصميم خبير وقدرة عليم بصير بفن الإنشاء والتعمير التي يتساوى في إدراكها بصير بفن الإنشاء، فإذا كانت هذه الأمور الظاهرة التي يتساوى في إدراكها كل مميز من بني الإنسان لم توجد إلا بإيجاد موجد خبير فهل يعقل أن يوجد هذا الكون بهذه الدقة والإحكام بما فيه من أجرام فضائية وعوالم متنوعة دون أن يكون له خالق قدير وفاعل مرید ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].^(١)

طريقة القرآن في الرد على الدهريين والماديين والملاحدة والطبيعيين من أصحاب الحضارات: ذكر ابن رشد أن طريقة القرآن الكريم في إثبات وجود الله عز وجل تنحصر في طريقتين وهما:

١- طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله، ولنسمى هذا بدليل العناية.

٢- ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحية والعقل، ولنسمى هذا دليل الاختراع.

ثم قال ابن رشد: «ولذلك كان واجباً على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ

(١) مناهج الجدل في القرآن الكريم للدكتور/ زاهر بن عواض الأملعي (ص ١٣١-١٣٢).

وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴿ [الأعراف: ١٨٥]، وكذلك أيضًا من وقف على معنى الحكمة في وجود موجود، أعنى معرفة السبب الذي من أجله خلق، والغاية المقصودة به كان وقوفه على دليل العناية أتم، فهذان الدليلان هما دليلا الشرع. وذكر أن الآيات الواردة في القرآن المنبهة على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع عز وجل تنحصر في هذين الجنسين من الأدلة، وذلك بين لمن تأمل الآيات الواردة في الكتاب العزيز في هذا المعنى، وذلك أن الآيات التي في الكتاب العزيز في هذا المعنى إذا تصفحت وجدت على ثلاثة أنواع:

١- آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية.

٢- آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع.

٣- آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعًا.

فأما الآيات التي تتضمن دلالة العناية فقط فمثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦١﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَدَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَمَرًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ [النبا: ٦-١٦]. ومثل قوله عز وجل: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ [الفرقان: ٦١]. ومثل هذا كثير في القرآن الكريم.

وأما الآيات التي تتضمن دلالة الاختراع فقط فمثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ [الطارق: ٥-٦]، ومثل قوله عز وجل: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ [الغاشية: ١٧]، ومثل قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴿١٧﴾ [الذاريات: ١٧]، ومثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَالْقَدْرُ لَيْلَةٌ الْبَدِئَةُ ﴿٢﴾ وَالْقَدْرُ الْحَقُّ وَالْقَدْرُ الَّذِي يَسْلُبُ الْمُلْكَ مِنَ الَّذِينَ يَشَاءُ وَالَّذِينَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٣﴾ [الحج: ٧٣]. ومن هذا قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠١﴾ [الأنعام: ٧٩]. إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى.

وأما الآيات التي تجمع الدلالة فهي كثيرة بل هي الأكثر. مثل قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ
 أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ
 فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ
 أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، فإن قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
 لَعَلَّكُمْ﴾ تنبيه على دلالة الاختراع. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ تنبيه على
 دلالة العناية. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُمُ اللَّهُمُّ الْأَرْضُ الْأَمِينَةُ أَحْيَيْتَنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا
 فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا
 خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وأكثر الآيات الواردة في
 هذا المعنى يوجد بها النوعان من الأدلة^(١).

ولقد ساق القرآن الكريم الأدلة والبراهين الدالة على وجوده عبر الأزمان كلها ماضيها
 وحاضرها ومستقبلها. ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

١ - في الماضي:

ذكر القرآن الكريم أدلة وجوده على السنة أنبيائه والصالحين من عباده من خلال
 حواراتهم لأقوامهم ومخالفهم وجلهم أصحاب حضارات. ومثال ذلك حين يصور لنا هذا
 الحوار عبر الزمان كله فيجعل الأنبياء والرسل جميعا في جهة وأقوامهم في الجهة المقابلة كما
 ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيكُمُ نُبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
 وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي
 أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٠٠﴾ قَالَتْ
 رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنَ ذُنُوبِكُمْ
 وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ
 يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠١﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ خُنُّوا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ

(١) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد (ص ٦٥-٦٩).

يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلَيْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدٰنَا سُبُلَنَا ۗ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذٰبْتُمُونَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلَيْتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَهٰلِكِنَّ الظَّالِمِينَ ﴿٣﴾ وَلَنَسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۗ ذٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿٤﴾ [إبراهيم: ٩-١٤]. ومن ذلك قول كل نبي لقومه: ﴿ يٰقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ۗ ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وكقوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صٰلِحًا قَالَ يٰقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوْا إِلَيْهِ ۗ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود: ٦١]. ومن ذلك قول العبد الصالح لصاحب الجنتين وهو يحاوره كما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ صٰحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ۗ أَكْفَرْتُم بِالَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوّٰنَكَ رَجُلًا ﴿٧٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الكهف: ٣٧-٣٩]. ومن ذلك أيضًا قول مؤمن آل فرعون: ﴿ * وَيَقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِنِي إِلَى النَّارِ ﴿١١١﴾ تَدْعُونِنِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ۗ مَا لِيَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفْرِ ﴿١١٢﴾ ﴾ [غافر: ٤١-٤٣].

٢- في الحاضر:

لقد جاء القرآن الكريم بالأدلة الكونية في الأنفس والآفاق شاهدة بوجود الله تعالى، حاور بها أصحاب الحضارات في زمن نزوله وكل من يأتي بعدهم، فقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيٰتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: ٥٣]، وجاءت الآيات متمثلة في بدائع وإحكام تصريفه لشئون خلقه واضحة في نظام الكائنات وسائر المخلوقات، وقد وجدت هذه المخلوقات على هيئة صالحة لاستخدام الإنسان لها وتذليلها له وتسخيرها للانتفاع بها، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهَا ۗ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك: ١٥]. وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوّٰنَهُنَّ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿ * اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ

أَلْفَلْكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٣﴾ وَسَخَّرْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٤﴾ [الجن: ١٢-١٣]. كما أن خلق الإنسان نفسه في تركيب بدنه وأجزائه وعجائب تكوينه وإنشائه على هيئة تدعو إلى الدهشة وتأخذ بالألباب والعقول يحال معها القول بأنها أبدعت نفسها بنفسها أو على سبيل المصادفة من غير صانع حكيم مبدع أو جدها وأبدعها وصورها بعنايته وحكمته وهو الله تعالى وعز وجل. قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٦٥﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٦٦﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْأَمْوَاتِ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٧﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ [الواقعة: ٥٨-٦١]. وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٦٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠]. وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٧١﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٧٢﴾ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٧٤﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٧٥﴾ [الطارق: ٥-٩]. وليس خلق الإنسان وحده هو الدال على وجوده بل خلق كل ما حوله كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ كَيْفَ خُلِقَتِ ﴿٧٦﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٧٧﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٧٨﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٧٩﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]. وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ ﴿٨٠﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٨١﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨٢﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٨٣﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿٨٤﴾ [ق: ٦-١١]. وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨٥﴾ [الحج: ٧٣]. وقال تعالى عن الدواب: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨٦﴾ [النور: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نُمَّرَ

إِلَىٰ نَيْمٍ مُّحْشَرُونَ ﴿ [الأنعام: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]. وعن الطير قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٧٩]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [الملك: ١٩]. وعن الجنان والزرع قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرِ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالزُّمَانُ مُمْتَشِبًا وَغَيْرِ مُتَشَبِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤١]. وعن تسخير كثير من المخلوقات لنا قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ لِّجَرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يَدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢]. وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١٢]. وعن الرياح وما حملت به من خيرات قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزِيحُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴾ [النور: ٤٣-٤٤]. وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿٢٧﴾ وَنُسِجُ الرِّعْدِ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكِ الْمَكَّةَ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴾ [الرعد: ١٢-١٣]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨]. وعن الأرض وما

وضع فيها من نعم وأسرار قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسِي وَأَنْهَرَ ط
 وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِوَجِينَ أَنْثِينَ يُغَشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
 يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوْسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ
 كُلِّ شَيْءٍ مُّوَزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرِزْقِينَ ﴾ [الحجر: ١٩-٢٠]. وقال
 تعالى: ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رِوْسِي وَجَعَلَ بَيْنَ
 الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا
 يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا
 وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ
 وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ
 أَنتُمْ كُفْرًا بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾
 وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَدْرِكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ ﴾
 [فصلت: ٩-١٠]. إلى غير ذلك من الآيات.

٣- في المستقبل:

وصف القرآن الكريم لنا صورا ومواقف الناس وخاصة أصحاب الحضارات يوم القيامة
 وتخاصمهم وتحاورهم وخاصة بعد أن استبان لهم الحقائق وانجلت عنهم الحجب
 وانكشفت عنهم الأغطية وصارت المحاوراة على بينة وبصيرة كما قال تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ
 نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
 الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ٢١-٢٢]، وقال تعالى عن لحظة دخول أهل النار منهم النار: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا
 فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ
 إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَبْتُمْ وَأُؤْتِنَا هَنُؤَلَاءِ أَضَلُّونَا فَاتَّهَمْتُمْ عَدَابًا ضِعْفًا مِّنْ
 النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَقَالَتْ أُؤْتِنَا هَنُؤَلَاءِ لَأُخْرَبْتُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ
 عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨-٣٩].

بل إن هذه الحقائق قد تنكشف لبعض من عجل الله تعالى لهم شيئاً من العقوبة في الدنيا لحظة وقوع العقوبة كما قال تعالى عن فرعون: ﴿ * وَجَوزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ۗ ءَأَلْسِنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩٠-٩١].

وقص القرآن الكريم لنا قصة أصحاب الجنة حين بيتوا نية حرمان المساكين من حقهم في الزكاة والصدقات فقال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿٧٧﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿٧٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٨٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٨١﴾ أَنْ ائْتِنَا عَلٰى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٨٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٨٤﴾ وَغَدَوْا عَلٰى حَرِّ قَدَرِينَ ﴿٨٥﴾ فَأَنَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٨٦﴾ بَلْ لَحْنٌ مَّحْرُومُونَ ﴿٨٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٨٨﴾ قَالُوا سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٨٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلٰى بَعْضٍ يَتَلَمَّضُونَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَبُولْنَا إِنَّا كُنَّا طٰغِينَ ﴿٩١﴾ عَسَىٰ رَبِّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٩٢﴾ كَذٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [القم: ١٧-٣٣].

وقال تعالى عن الغافلين الذاهلين عن علامات الساعة وأشراتها: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَّبِعُهَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هٰذَا بَلْ كُنَّا ظٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧].

وأما عن مواقف الناس يوم القيامة فقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلٰى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِعَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هٰى إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلٰى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧-٣٠].

وقال تعالى عن حال أهل النار: ﴿وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوثُونَ

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٨].

وقال تعالى عنهم: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٦٨﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْأَقْرَارُ ﴿٦٩﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٧٠﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٧١﴾ أَتَّخَذْتَهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٧٢﴾ إِنَّ ذَلِكَ لِحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٥٩-٦٤]، إلى غيرها من الآيات.

• من أمثلة الملحددين الماديين المنكرين لوجود الله:

١- النمرود بن كنعان: والذي ادعى لنفسه القدرة على الإحياء والإماتة وحاوره نبي الله إبراهيم عليه السلام وحاجه فأفحمه فبهت الذي كفر، وعن هذا قال الله عز وجل في القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقد أشار ابن كثير في تفسيره إلى أن النمرود أراد أن يدعي لنفسه مقام الإحياء والإماتة عنادًا ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك وأنه هو الذي يحيي ويميت كما افترى فرعون بمثل ذلك في قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقَدْ لِي يَنْهَمْسُنْ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنْ الكَذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]. ولهذا قال له إبراهيم عندما ادعى هذه المكابرة: ﴿فَارَبِّ اللَّهِ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي إذا كنت كما تدعي أنك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود كيف يشاء في خلق ذواته وتسخير كواكبه، فإن هذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت لها - كما ادعيت - تحيي وتميت فأنت بها من المغرب، فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت، أي أحرص ولم يتكلم وقامت عليه الحجة.

ثم قال ابن كثير رحمه الله: «وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكر كثير من المنطقيين أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ترديه، وليس كما قالوه بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ويبين بطلان ما ادعاه نمرود في الأول والثاني والله الحمد والمنة. وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم والنمرود بعد خروج إبراهيم من النار ولم يكن قد اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة»^(١).

٢- فرعون مصر: والذي ادعى لنفسه الربوبية أمام الناس كما حكي الله تعالى عنه ذلك فقال: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ [النازعات: ٢٣-٢٥].

وادعى الإلوهية أمام الملأ وهم خاصته كما حكاها عنه القرآن الكريم فقال: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقَدْنَا عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَل لِّي صِرْحًا لِّعَلِي أَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [القصص: ٣٨].

بل إنه خدع قومه واستخفهم حين أوهمهم أن الإلهية بتملك المادة والسلطان كما حكي القرآن عنه ذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف: ٥١]، وهذه المغالطة كان يعلم فرعون وقومه أن الحقيقة في غيرها لكن الكبر قتلهم كما قال تعالى عنهم: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٣-١٤].

٣- الشيوعيون في العصر الحديث:

فكرة الإلحاد فكرة قديمة حديثة وهي تعتمد على أن المادة في نظر القائلين بهذه الفكرة لا تفنى ولا تستحدث وهي تعنى أن المادة قديمة وهي مركبة من أجزاء لا تتجزأ وهذه الأجزاء

(١) تفسير ابن كثير (١/٤١٩).

أو الذرات دائمة التحرك في الفضاء اللانهائي، ومن اجتماعها تتكون الأجسام وبافتراقها تفنى وهكذا استمر الأمر من الأزل وسيبقى إلى الأبد من دون غاية ولا هدف إنها المادية والآلية البحتة.

هذه الفكرة هي التي قال بها قديما ديموقريطس من الفلاسفة وسأها بمبدأ الديالكتيك أو نظرية «ترابط الوجود وهي فكرة الماديين المحدثين أمثال لينين الذي سهاها «الدفاتر الفلسفية» كما وضع لها ستالين «المادية الجدلية والمادية التاريخية»، وقد حمل لواء هذه الفكرة كارل ماركس وسعى لفرضها على الناس بكل وسيلة مدعيا أن مهمة الفلسفة تغيير العالم مخالفا بذلك أستاذه هيغل الذي يعتقد أن مهمة الفلسفة تفسير العالم، واستغل ماركس تحلف أوروبا وسخط الشعوب على النظام الكنسي الذي كان هو الحاكم في ذلك الوقت والذي وقف بالمرصاد لكثير من مسائل التقدم العلمي فخلط ماركس الأوراق وادعى أن الدين أفيون الشعوب وأنه سبب التخلف وطالب بفصل الدين عن الدولة ونسب ما حدث من الكنيسة لكل الأديان بما فيها دين الإسلام مع الفرق الكبير بينهما وأعلنتها حربا على كل الأديان، ووقف معه وعاونه كل من وافق هذا الفكر هواه حتى أقاموا لهم دولة الاتحاد السوفيتي على أشلاء ودماء من خالفهم أو رفض فكرهم، ولكن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة فسرعان ما انكشف للناس بطلان فكرهم ولفظت الفطر السليمة إلهادهم فزالت بسرعة عجيبة دولتهم، وهوت أمام الحق أفكارهم، وظهر للعيان أن أكثر من خمسة وسبعين مليوناً من المسلمين مازالوا على دين الإسلام وبربهم مؤمنين رغم ما ادعاه الملاحدة عبر سنين حكمهم من أن هؤلاء في عداد الملاحدة الشيوعيين.

ولكن أبى الله تعالى إلا إظهار الحق على الباطل بل وزوال الباطل إن عاجلاً أو آجلاً، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [سبأ: ٤٨-٤٩]، كتب أبو زرعة الرازي إلى إسحاق بن راهويه: «لا يهولنك الباطل،

فإن للباطل جولة ثم يتلاشى»^(١).

وإذا ظهر أهل الباطل على أهل الحق في فترة من الزمان إما لنصرة أصحاب السلطة لأهل الباطل، أو لتقصير أهل الحق في نصرة الحق، أو لذنوب اقترفها أهل الحق أوجبت تسلط أهل الباطل عليهم، فإنه يجب على أهل الحق من المسلمين أن يلزموا قلوبهم لزوم الحق وأن يصبروا على ذلك وأن يصدقوا في توجيههم إلى الله عز وجل لعل الله تعالى أن يرفع عنهم البلاء وأن يظهر بهم الحق.

قيل للإمام أحمد بن حنبل أيام المحنة: «يا أبا عبد الله! ألا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل؟ فقال: كلا، إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة، وقلوبنا بعد لازمة للحق»^(٢).

ثانيًا: الحوار في إثبات وحدانية الله:

ونعني بها تفرده عز وجل ذاتا، وصفات، وأفعالا، فليس له في ذلك شريك ولا نظير، ولا مقارب أو مثيل. وهذا هو أصل الدين ومحوره وما تأسست عليه كليات الدين وجزئياته. وهذا هو أساس دعوة جميع الرسل عليهم السلام، ولب رسالاتهم، وعليها مدار جميع الكتب المنزلة من عند الله تعالى عليهم، وهذه الحقيقة هي حقيقة الحقائق الواقعية من حيث الوجود، ثم هي أصل الحقائق التشريعية من حيث الوجود، لذا كان شعار جميع الأنبياء والرسل: ﴿يَنْقُومِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ جاءت على لسان كل من نبي الله نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام، بل وعلى هذا النمط جاءت دعوة الرسل عليهم السلام جميعًا، حتى جمع الله تعالى وأوجز لخاتمهم هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وهي على وجازتها شاملة لأصول الصفات الإلهية، والرد على جميع صنوف الملحدين فيها من أصحاب الحضارات وغيرهم، ثم هي مقررة لأسمي العقائد اللاتقة بالله عز وجل،

(١) مقدمة الجرح والتعديل (١/٣٢٤).

(٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي الباب السابع والستون (ص ٣١٠).

ومصححة لضلالات أهل الكتاب، ناهيك عن المشركين^(١).

وقد سلك القرآن في استدلاله على وحدانية الله مسلكين:

المسلك الأول: الاستدلال على ذلك بانتظام الكون وسلامته من الاختلال والتصادم. ومن أبرز الأدلة في ذلك ما يسميه علماء الكلام بدليل التماح^(٢) وهو بمعنى «قياس الخلف» في:

١- قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِاهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۗ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءِاهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَبَّتُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٢].

٣- قوله تعالى: ﴿مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال الإمام عبد الرحمن بن نجم في كتابه استخراج الجدال من القرآن بعد إيراده قول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِاهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] قال: «وهذا الدليل معتمد أرباب الكلام من أهل الإسلام»^(٣). وقد نقل عن بعض علماء السلف أنه قال: نظرت في سبعين كتاباً من كتب التوحيد فوجدت مدارها على قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِاهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، واعلم أن تقرير الدليل في الآية الأولى أن يقال: الله واحد لأن التدبير لا ينتظم في دار واحدة بمديرين فكيف ينتظم التدبير العام في جميع هذا الكون بمديرين؟! فلو وجد ذلك لتنازعت الإرادات بين سلب وإيجاب إذ يريد أحدهم حياة شخص والآخر موته أو إبعاده والآخر إشقائه وهذا التنازع يؤدي إلى فساد السماوات والأرض لتخالف الإرادات، ولكنها صالحان غير فاسدين، فبطل ما يؤدي إلى فسادهما وهو تعدد الآلهة، فثبتت الوحدانية لله

(١) المنهاج القرآني في التشريع للدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد (ص ٣٣١).

(٢) معنى دليل التماح هو: إثبات المطلوب بإبطال نقيضه لأن النقيضين لا يجتمعان ولا يخلو المحل من أحدهما.

(٣) استخراج الجدال لابن منجم، الباب الخامس (ص ٤٨).

تعالى. وتقرير الدليل الثاني مبني على فهم المراد من قوله تعالى: ﴿ إِذَا لَابَّتْغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢]. وفيه قولان:

الأول: أن المراد به على فرض وجود آلهة مع الله فإنها ستطلب إليه القربى وتفترق إليه، والجواب عن هذا الافتراض أن من يفترق إلى غيره لا يصلح أن يكون إلهًا.

القول الثاني: أن المراد به على فرض وجود آلهة مع الله فإنها ستتجه لمنازعته ومغالبتة على السلطة فيقع الصدام الذي ينتج عنه فساد العالم. والجواب عن هذا الافتراض: أنه لم يفسد العالم ولم يختل نظام الكون فثبت أنه ليس مع الله آلهة أخرى.

وتقرير الدليل في الآية الثالثة قريب مما تقدم في الآية الثانية، فإنه لو فرض وجود إله مع الله لانفرد كل إله بسلطان مستقل واتجه للمغالبة والاستعلاء بالقوة على غيره فینشأ عن ذلك فساد الكون أو تغلب أحدهما على الآخر والمغلوب لا يكون إلهًا، ولكن نظام الكون لا فساد فيه ولا اختلال فدل على أن مدبره إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

وقد ذكر بعض العلماء أنها قد تثار الشبهة على هذه الأدلة من وجهين:

أحدهما: أنه يجوز أن يكون اثنان تتفق إرادتهما فلا يقع خلاف فلا فساد.

وثانيهما: قالوا: لما رأينا وجود الشيء وضده مثل الموت والحياة والنور والظلمة والخير والشر وما يقتضى الحكمة وينافئها من النقص بعد البناء والعجز بعد القوة جاز أن ينسب إلى مدبرين اثنين.

والجواب على الوجه الأول:

أن يقال: يستحيل وجود اثنين متحدين إرادة متكافئين علما ومعرفة، والقدرة والإرادة والحكمة والتدبير على وجه لا تتقدم صفة أحدهما على صفة الآخر في الأعيان والأذهان، فإذا وجدا - وذلك مستحيل ومتعذر - فهما واحد سموه اثنين. ويقال في حصر هذا الافتراض: لو فرض وجود إلهين وأراد أحدهما تحريك جسم وأراد الآخر تسكينه فلا يخلو الأمر إما أن يحصل مرادهما فيكون الجسم ساكنًا متحركًا في آن واحد، وهذا جمع بين النقيضين وهو باطل، وإما ألا يحصل مراد واحد منهما فيخلو الجسم عن الحركة والسكون، وهذا ممتنع، بالإضافة

إلى عجز كل منهما في تنفيذ مراده، ومن كان كذلك فليس بإله قادر، وإما أن يحصل مراد أحدهما دون الآخر، فالذي حصل مراده هو الإله القادر والآخر عاجز لا يصلح للإلهية، وإما أن تتنازع الإرادتان فيستعمل كل إله سلطته وقدرته ضد الآخر فينشأ عن هذا فساد الكون وخراب العالم، والواقع أن الكون بما فيه يجري على أحكم نظام وأدق فتبين من هذا أن خالق هذا الكون ومن فيه إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

والجواب على الوجه الثاني: أن صدور الشيء وضده أدل على قدرة الصانع، وقد نبه الله سبحانه وتعالى على ذلك في عدة مواضع من الكتاب العزيز، من ذلك قوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، وغير ذلك من الآيات.

المسلك الثاني: في التركيز على إبطال معبودات المشركين وبيان تفاهتها وأنها لا تخلق ذبابة ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها ضرراً ولا تجلب لها نفعاً فكيف تملك لغيرها ضرراً أو نفعاً، وبيان تفاهة المشركين عندما يعبدون هذه الأوثان وأنها أضعف وأحقر من أن يقام لها وزن أو يثار حولها حوار. قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]. وقد بعث الله الرسل وأنزل الكتب لتحقيق هذا المبدأ العظيم وهو إثبات وحدانية الله تعالى وترك ما يعبد من دونه، وهذا الأصل العظيم هو الأصل الأول الذي دعت لتحقيقه جميع الأديان السماوية، إذ بعث الله في كل أمة رسولاً يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

٢- الحوار في إثبات الرسالات والنبوات:

لقد خلق الله عباده حنفاء، وفطرهم على الإسلام والتوحيد، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحل الله لهم، وأحلت لهم ما حرم الله عليهم، وصرفتهم عن عبادة ربهم، ولبست عليهم دينهم، وحملتهم على أن يشركوا بالله ما لم ينزل به

سلطاناً، وزينت لهم الباطل، فامتن الله عليهم فأرسل إليهم رسله مبشرين ومنذرين وأنزل عليهم كتبه ليأخذوا بنواصي العباد إليه يذكرونها بإلهيته تعالى ووحدانيته، ويحملونها على عبادته وحده لا شريك له، ويبينون لهم حدود الله تعالى ومحارمه، وما يرضيه وما يسخطه، وما أعده من نعيم لأهل طاعته، وما أعده من عذاب عظيم لمن خالف أمره واتبع غير سبيله. ومن منته تعالى على عباده أنه كلما اشتد الخطب وأعرض الخلق عن الحق فانتشر الشرك وتفشى الظلم اصطفى الله لعباده عبداً منهم فخصه برسالته وصنعه على عينه ودعاه لحمل رسالته وبيانه لعباده والصبر على دعوتهم والأخذ بنواصيهم إليه حتى يثوبوا إلى رشدهم وينتهوا عن غيرهم فيظفروا بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

فالنبوة اصطفاً واختيار ولا تكون إلا لمن اختاره الله تعالى لها ممن هم أهل لحملها، فلا تكون بالوراثة ولا بالغلبة والقهر. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وتوالى على البشرية الرسل رسول يتلوه رسول كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةً رُسُوهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

ولقد اتضح معالم هذه الفترات السابقة على النبوات من خلال الحديث القدسي الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبداً حلالاً، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم^(١) عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وإن

(١) اجتالتهم: أي أزلتهم من الجولان وهو الزوال عن المستقر، وقال القرطبي استخفتم فجالوا معهم في الضلال. القرطبي (٥/٣٨٩).

الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»^(١).

واتضح أيضًا معالمها مما ذكره جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي، فلقد أوجز جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأبلغ في بيانه للنجاشي، حين هاجر إليه، وأرسل المشركون في طلبه واستدعاه النجاشي، فتكلم جعفر، وبين ما جاء به النبي خير بيان فقال:

«أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية: نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصللة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة، والصيام، قال: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا، فعدا قومنا علينا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واحترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدراً من ﴿كَهَيْعَصَ﴾ [مريم: ١] فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة...»^(٢) الحديث.

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار والراوي هو عياض بن همار التميمي المجاشعي صحابي سكن البصرة، والنسائي في السنن، والطبراني في الكبير.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسند جعفر بن أبي طالب باب الهجرة إلى الحبشة، رقم (١٧٦٦، ٢٣١٦١)، ورواه البيهقي في السنن كتاب السير رقم (١٨٨٩٢).

لقد أسس الله الدين على التصديق بنبوة النبيين فأوجب الإيـان بهم إجمالاً وبمن ورد ذكرهم في القرآن تفصيلاً، وجعل التكذيب وترك الإيـان بواحد منهم كالتكذيب بجمعهم، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠].

لم يرسل لكل قوم ممن ذكروا إلا نبيهم، فلم يرسل لقوم نوح إلا نوح ولم يرسل لعاد إلا هود وهكذا، ومع ذلك جعل تعالى تكذيب كل قوم لرسولهم تكذيب بكل الرسل لكون دعوة الرسل واحدة، فكان التكذيب بواحد تكذيب بالجميع، وفي هذا يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

والنبوة سابقة على الرسالة، فكل رسول نبي ولا عكس، وكتاتهما وهبية لا كسبية لا كما ادعى أدعياء الفكر الحديث من المستشرقين حين زعموا أن رسالة النبي الخاتم محمد ﷺ من قبيل الوحي النفسي، ولقد أحسن الدكتور محمد عبد الله دراز في الرد عليهم حيث قال (١): «ومن تتبع أنواع المجادلات التي حكاها القرآن عن الطاعنين فيه رأى أن نسبتهم القرآن إلى تعليم البشر كانت هي أقل الكلمات دوراناً على ألسنتهم، وأن أكثرها وروداً في جلد هم هي نسبتهم إلى نفس صاحبه على إضرابهم في تحديد تلك الحالة النفسية التي صدر عنها القرآن: أشعر هي أم جنون أم أضغاث أحلام». ثم قال: «وهذا الرأي هو الذي يروجه الملحدون اليوم باسم «الوحي النفسي» زاعمين بأنهم بهذه التسمية قد جاءونا برأي علمي جديد وما هو بجديد وإنما هو الرأي الجاهلي القديم لا يختلف عنه في جملته ولا في تفصيله، فقد صوروا النبي ﷺ رجلاً ذا خيال واسع وإحساس عميق فهو إذن شاعر، ثم زادوا فجعلوا وجدانه

(١) النبأ العظيم للشيخ دراز (ص ٨٤).

يطغى كثيرًا على حواسه يخيل إليه أنه يرى ويسمع شخصًا يكلمه وما ذاك الذي يراه ويسمعه إلا صورة أحييته ووجدانه فهو إذن جنون أو أضغاث الأحلام، على أنهم لم يطيقوا الثبات طويلاً على هذه التعديلات فقد اضطروا أن يهجرُوا كلمة «الوحي النفسي» حينما بدا لهم في القرآن جانب الأخبار الماضية والمستقبلية فقالوا لعله تلقنُها من أفواه العلماء في أسفاره للتجارة فهو إذن قد علّمه بشر، فأى جديد ترى في هذا كله؟ أليس كله حديثاً معاداً يضاؤون به قول جهال قريش؟ وهكذا كان الإلحاد في ثوبه الجديد صورة منسوخة بل ممسوخة منه في أقدم أثوابه، وكان غذاء هذه الأفكار المحتضرة في العصر الحديث مستمدًا من فئات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨].

«وإن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله أنه كان صادقاً أميناً وأنه كان معذوراً في نسبة رؤاه إلى الوحي الإلهي لأن أحلامه القوية صورتها له وحيًا إلهيًا فما شهد إلا بما علم، وهكذا حكى الله لنا عن أسلافهم حيث يقول: ﴿فَأَيُّهُمْ لَا يُكَذِّبُوكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأَتِ اللَّهُ تَجْحُودُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، فإن كان هذا عذره في تصوير رؤاه وسماعه فما عذره في دعواه أنه لم يكن يعلم تلك الأشياء لا هو ولا قومه من قبل هذا بينما هو قد سمعها بزعمهم من قبل؟ فليقولوا إنه افتراه ليم لهم بذلك محاكاة كل الأقاويل ولكنهم لا يريدون أن يقولوا هذه الكلمة لأنهم يدعون الإنصاف والتعقل ألا فقد قالوها من حيث لا يشعرون»^(١).

«وخلاصة رأى هؤلاء الماديين: أن الوحي إلهام كان يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج، وقد ذكر العلامة السيد محمد رشيد رضا في كتابه «الوحي المحمدي» شبهات المنكرين لعالم الغيب على الوحي الإلهي وتصويرهم لنبوة محمد ﷺ بما يسمونه بالوحي النفسي وذكر أن «أميل درمنجام» قد فصل الشبهة التي أجملها «مونتيه»، كما ذكر أن هذه الشبهة لها عشر مقدمات: منها دعوى الأخذ عن بحيرا الراهب والأخذ من ورقة بن نوفل، ودعوى

انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب... إلخ، وقد ناقش تلك الشبهات ورد عليها بمنطق الحججة والبرهان»^(١)،^(٢).

والخلاصة أن الرسالة هبة واصطفاء لمن اختصه الله تعالى من خلقه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

والرسل هم أعلم الخلق وأعدلهم طريقة، وأكملهم خلقًا وأصدقهم لهجة، شرفهم الله تعالى بالنبوة، وأعطاهم الحكمة، ورزقهم قوة العقل، ودقة الفهم، وسداد الرأي، واصطفاهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه، يبلغونهم أوامره ونواهيه، ويحذرونهم غضبه وعقابه، ويرشدونهم إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة، ومع هذا ساق الله لهم من المعجزات ما يؤيد صدق نبوتهم وأنهم مبعوثون من عند خالقهم، وحاوِر كل من ارتاب أو شكك في نبوتهم، ورد شبهاتهم بالحجج الباهرة والأدلة الدامغة والتي على مثلها آمن القاضي والداني، فانبهرت بأدلة الوحي ومعجزاته عقول صفوة الخلق وانشرحت له وبه صدورهم فحملوا الأمانة عن أنبياء الله لأقوامهم، وكانوا حجة على من خالفهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِمْ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِمْ فَقَامَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَأْعَمَهُمْ عَلَّمَوْا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، فجعل تعالى إيمان أحدهم أو بعضهم حجة على المعاندين منهم وغيرهم. بل إن المتتبع للتاريخ البشري وخاصة من كانت لهم حضارة وتاريخ النبوات يجد أن العقول والطاقات البشرية قد اختلفت توجهاتها من جيل إلى جيل، وفي كثير من الأجيال تفوقت العقول في بعض المجالات دون البعض فبرعت فيه وبزت وأتت بالطريف الذي لا تدرك آثاره ولا يلحق غباره، لذا كان لكل حضارة توجهها تفوقت فيه وبرعت، فانبهرت به النفوس وفتنت به القلوب وارتدت على أدبارها بعيدا عن الحق وفرارا منه، وإذا برحمة الله تتجلى ببعث نبي يأخذ بنواصيرهم إلى الحق، وينقذهم من الفتن، ويقوم مسيرتهم ويردهم عن

(١) الوحي المحمدي من (ص ٨٧-١٤١).

(٢) مناهج الجدل للدكتور زاهر بن عواض الألعى (ص ٢٩٦-٢٩٧).

غيهم ويعيدهم إلى رشدهم ويقودهم لما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم، ويؤيد الله تعالى نبيه بمعجزة في المجال الذي تفوق فيه قومه وعرفوا دقائقه ووصلت العقول فيه غايتها ونهايتها، فجاءت المعجزة فوق طاقاتهم لتثبت لهم صدق نبي الله الذي أرسل إليهم، وتقطع عليهم الشبهات والظنون في إمكانية الإتيان بمثلها مع تحصيل العلم والدراسة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر قوم ثمود - وهم أصحاب حضارة - حين وجهوا طاقاتهم لدراسة الجبال وعرفوا أغوارها وتعرفوا على خباياها وتمكنوا من تحويلها إلى ديار نحتوها من الداخل ومن الخارج وحولوها إلى وادٍ، وكأن الجبال قد صارت في أيديهم قطعة من صلصال يشكلونها كيف شاءوا، وكما قال عنهم الحق تعالى: ﴿ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ [الفجر: ٩]، قال صاحب الظلال: «وكانت ثمود تسكن بالحجر في شمال الجزيرة العربية بين المدينة والشام وقد قطعت الصخر وشيدته قصوراً، كما نحتت في الجبال ملاجئ ومغارات»^(١). قال الإمام القرطبي: «وكانوا لقوتهم يُخرجون الصخور، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيوتاً لأنفسهم»^(٢). فقابلوا نعمة ربهم عليهم بالبحود والكران، فبعث الله لهم نبيه صالح عليه السلام وجعل معجزته لهم ناقه ضخمة تخرج من هذا الصخر الذي جعلوه مادة تقدمهم ومفخرة حضارتهم، ليعجزهم ويثبت لهم كمال قدرته وصدق رسوله الذي أرسل إليهم من ربهم، ولكنهم جحدوا بهذه الآية العظيمة وعقروا الناقة وتآمروا على قتل نبيهم صالح فانتقم الله منهم، كما قال تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١٠﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١١﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٣﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٤﴾ ﴾ [الشمس: ١١-١٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءِ

(١) كتاب في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٠٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٤٨).

فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ [الأعراف: ٧٣].

ومثال ثان: قوم فرعون - وهم أصحاب حضارة - حين بلغوا في السحر الغاية حتى بهروا الناس بسحرهم، وكان السحر عندهم بديل وسائل الإعلام الآن، فكان للفرعون من السحرة أمهرهم ليقوموا بدور المسلي في السهر والسم، وصار اتخاذ السحرة للترفية والتسلية موضة ذلك العصر، فصار كل من يملك الإنفاق عليهم يتخذ لنفسه ساحرا أو يستأجره حتى أصبحت رواتب السحرة من أعلى الرواتب، فتسابق الناس على تعلم السحر وإتقانه حتى ساد في الأمة، كما حكي الله عن إتقانهم لذلك فقال تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وبين تعالى أثر سحرهم على نبيه موسى المرسل إليهم فقال تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه: ٦٧-٦٩].

بل صار منهم أئمة في السحر وعلماء متخصصون فيه كما قال عنهم تعالى: ﴿ يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٣٧].

«سَحَابٍ» صيغة مبالغة. وزد على ذلك كثرة هؤلاء المتخصصين في السحر كما ورد في بعض الروايات؛ أخرج الطبري وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن القاسم بن أبي بزة قال: «سحرة فرعون سبعون ألف ساحر، فألقوا سبعين ألف جبل وسبعين ألف عصا»^(١). وذكر القرطبي أن ابن المنكدر قال: «ثمانين ألف ساحر»^(٢)، وقيل غير ذلك. وإذا بالحق سبحانه وتعالى يسوق لهم مع نبيه موسى عليه السلام معجزته التي أيده بها من جنس ما تفوق فيه قومه، فيجعل من العصا حية تسعى ويراهها الجميع كذلك بما فيهم السحرة أنفسهم بل وتلقف ما صنعوا، فلم تنتفخ لها بطن ولم يزد لها حجم، فلم يملك السحرة أمام هذه الآية المبهرة إلا أن خروا لله سجدا قائلين: آمنا برب هارون وموسى، فهم هم الذين رأوا منذ قليل عصيهم

(١) تفسير الطبري (٦/٢١)، الدر المنثور (٣/٥١٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (٧/٢٢٩)، (١١/١٩٤).

عصى وحباهم حبالا وإن رأهما الناس حيات فهايات الأشياء عندهم لم تتغير.

ومثل ذلك يقال عن نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام حين بُعث إلى قومه، وهم أصحاب حضارة قيل في الطب تفوقت، وقيل في غير ذلك، فأيده الله تعالى بآية إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وخلق طير من الطين فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، فلما رأوا الآيات آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيد الله الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين منتصرين.

ويؤيد ما قلناه ما ذكره ابن كثير في تفسيره فقال رحمه الله: «قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه؛ فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار، وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجهاد أو على مداواة الأكمه والأبرص وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟! وكذلك محمد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء فأتاهم بكتاب من الله عز وجل لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا؛ وما ذاك إلا لأن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبدا»^(١).

والخلاصة: أن الله تعالى أجرى على أيدي أنبيائه الآيات الباهرات، والتي على مثلها آمن الناس الحاضر منهم والغائب، وانقضت معجزات الأنبياء بانقضاء أعمارهم، إلا معجزة الدهر، وشعار الفخر: القرآن الكريم، مضى عليه أربعة عشر قرنا من الزمان، وإعجازه جديد، وهرم شباب الزمان وروث القرآن إلى مزيد، تقضت السنون والأعمار وتصمرت الليالي والأيام وتحديه للبشرية لا يزال قائما، ولن يأتي أحد بسورة من مثله ولو كان الجن

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٨٥).

والإنس بعضهم لبعض ظهيرا.

وأما أصحاب الحضارات فما منهم من حضارة إلا ساق الله لها نبيا يرشدها، أو نذيرا يعلمها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وكان ردهم ما قاله تعالى عنهم: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزخرف: ٦-٧]، ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الحجر: ١١]، جاءهم الرسول أو النبي أو النذير بلسانهم الذي يعرفونه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، جاءهم الرسول ليعلمهم حقيقة دورهم في الحياة ومهمتهم العظمى فيها، والتي قال عنها تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فلولا إذ جاءهم الرسول عرفوا مدى ظلمهم لأنفسهم وتقصيرهم في حق ربهم ونبيلهم فأنابوا، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، فلو صدقوا الله لتحولوا إلى جند ينصرونه، ولكنا ممن قال الله فيهم: ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ نَّبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرًا فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، لكن الشياطين اجتالهم فأفسدت عليهم أعظم نعم الله عليهم؛ الوحي المنزل من عند خالقهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢]، فاتهموا أنبياءهم ظلما بالجنون أو السحر، قال عنهم تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، فوجلوا بعذاب ليدكروا، قال عنه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤]، فاستحقوا

قوله تعالى عنهم: ﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠]. كل هذا في الدنيا لكنهم يوم القيامة بالحق وبالرسل يقرون ولأنفسهم يتهمون، قال تعالى: ﴿يَمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا سَهْدًا عَلَيْنَا أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١٠].

ولقد تكفل الحق تبارك وتعالى بإتمام رسالة كل رسول أرسله مهما حاول قومه أن يشوهوا صورته أو يثيروا الشبهات حوله، ومن تلك الشبهات ما أثاره أصحاب الحضارات من:

شبهة كون الرسول بشرا:

إن مهمة الأنبياء عليهم السلام أن يبلغوا رسالة الله إلى عباده، وأن يكونوا قدوة لهم في سلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم.

ولو كان الرسل من الملائكة كما طلب بعض البشر لما استطاع البشر أن يأخذوا عنهم أو يجتمعوا بهم ولكان للناس حجة في عدم اتباع الرسل لاختلاف جنسهم وطبيعتهم وأنهم لا يأكلون ولا يشربون، وأنهم لا يعصون، لقوله تعالى عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]؛ وأنهم دائما في عبادة لا ينقطعون عنها أبداً لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْطُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

والملك الذي طلب أصحاب الحضارات وغيرهم إرساله لهم قد يأتيهم إما في صورته الملائكية ولو حدث هذا لما احتملها البشر بل هي صورة حاملة لهم على الخوف والفرح لعدم إلفها ولعدم القدرة على تحملها إلا لمن اصطفاه الله تعالى لذلك وأهله له وهياً، والنبى ﷺ لما رأى جبريل أول مرة وقد ملأ ما بين السماء والأرض فرح وارتعد وعاد بيته وهو يقول:

«دثروني دثروني» لشدة ما رأي.

وإما أن يأتيهم الملك في صورة بشر وعندها سيشكون في أمره ويلتبس الحال عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ [الأنعام: ٨-٩].

قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾ «أي: إنهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة، لأن كل جنس يألف بجنسه، وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر ﴿ مَلَكًا ﴾ لنفروا من مقاربتة، ولما أنسوا به، ولدخلهم من الرعب من كلامه، والاتقاء له ما يكفهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تعم المصلحة، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به، وليسكنوا إليه، لقالوا: لست ملكًا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك، وعادوا إلى مثل حالهم. حيث كانوا يقولون عن محمد ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام إنهم بشر، وليس بينهم وبين الناس فرق، فيلبسون على الناس بهذا ويشككونهم، فأعلمهم الله عز وجل أنه لو أنزل ملكًا في صورة رجل لوجدوا سبيلًا إلى اللبس «الشك» كما يفعلون»^(١).

وقد ذكر تبارك وتعالى في آية كريمة أخرى الحكمة من كون النبي من البشر، لا من الملائكة، وذلك أن المرسل يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم، فلو كان الذين يسكنون الأرض من الملائكة لبعث الله تعالى إليهم نبيًا ﴿ مَلَكًا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٤﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمشُونَ لُنزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَاتٌ رَسُولًا ﴿١٥﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُزِّلَ الْمَلَكُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ ﴿٨﴾ [الحجر: ٦-٨].

(١) تفسير القرطبي (٦/٣٩٣) بتصرف.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَتِيكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَتِيكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ [الفرقان: ٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ ۖ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ [هود: ١٢].

بل زاد الكفار على تلك الشبهة شبهة أخرى حين أيقنوا بلزوم بشرية الرسول، فطلبوا أن يكون الرسول واحدا ممن عدوهم من عظمائهم فرد الله عليهم شبهتهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمٌ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۗ لَخَنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢].

بل زادوا على ذلك في حق النبي الخاتم محمد ﷺ شبهة جديدة وهي:

شبهة كون معلمه بشرا:

ادعى كفار مكة أن معلم النبي محمد ﷺ القرآن بشر، ففي الفترة المكية كلما هم النبي ﷺ بدعوة أحد من غير العرب خاصة من له منهم قراءة في كتب السابقين ككتب أهل الكتاب زعمت قريش أنه يعلمه الوحي ولذا تختبطوا؛ فتارة جعلوا معلمه القرآن غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر، وتارة نسبوا ذلك لعبد بني الحضرمي واسمه يعيش، وتارة لغلام بني عامر بن لؤي، وقيل غلامان وهما يسار وجبر، وتارة لنصراني واسمه بلعام، وتارة لنصراني واسمه أبو ميسرة، وتارة لعداس، وتارة لسلمان الفارسي. وسبحان من أعمى بصائرهم، فكل هؤلاء اتفق لهم كونهم عجماء لا يحسنون العربية وهذا الوحي جاءهم بلسان عربي مبين في القوة والوضوح والتحدي لهم وهم أهل العربية الذين سبروا^(١) أغوارها وأحسنوا نظمها

(١) سبروا أغوارها: أي قاسوا أعماقها، السبر التجربة، وتقدير الشيء، وسبر الجرح بالمسبار قاس قعره بالحديدة أو بغيرها، وفي الحديث (إسباغ الوضوء في السبرات)، والسبرة الغداة الباردة.

شعرا ونثرا، فجاءهم بنظم معجز على غير ما أفوا، وتحداهم أن يأتوا بمثله فلما عجزوا تحداهم بعشر سور من مثله، فلما أعياهم تحداهم بسورة من مثله فما أعرؤا الأمر جوابا، وما استطاعوا الوقوف أمام عظمة هذا الوحي إلا تائهين يتلمسون الشبهات فتارة ينسبوه للشعر وتارة للسحر وتارة لكلام البشر، فلما انكشف للقاصي والداني زيف ذلك نسبوا لحامل الرسالة ﷺ شيها آخر، ككونه كاهنا أو مجنونا أو معلمه بشر ومع كل شبه يثيرها حول القرآن أو حامله ﷺ ينزل القرآن بمحاورتهم والرد على شبههم ودحضها ومثال ذلك شبهة كون معلمه بشرا، فقال الله تعالى ردا على هذه الشبهة: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأُولِينَ أَكْتَبَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٦٠﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعَلْمُ السِّرِّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥-٦].

قال الإمام الشوكاني في كتابه فتح القدير في تفسير الآية:

«ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبههم فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ اللام هي الموطئة: أي ولقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون إنما يعلم محمدا القرآن بشر من بني آدم غير ملك. وقد اختلف أهل العلم في تعيين هذا البشر الذي زعموا عليه ما زعموا فقيل هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر وكان نصرانيا فأسلم، وكان كفار قريش إذا سمعوا من النبي ﷺ أخبار القرون الأولى مع كونه أميا قالوا: إنما يعلمه جبر وقيل اسمه يعيش عبد لبني الحضرمي وكان يقرأ الكتب الأعجمية، وقيل غلام لبني عامر بن لؤي، وقيل هما غلامان: اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر، وكانا صيقلين يعملان السيوف وكانا يقرآن كتابا لهم، وقيل كانا يقرآن التوراة والإنجيل، وقيل عنوا سلمان الفارسي، وقيل عنوا نصرانيا بمكة اسمه بلعام وكان يقرأ التوراة، وقيل عنوا رجلا نصرانيا كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية، وفي رواية اسمه عداس. قال النحاس: وهذه الأقوال غير متناقضة لأنه يجوز أنهم زعموا أنهم جميعا يعلمونه، ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قول من قال إنه سلمان لأن هذه الآية مكية وهو إنما أتى إلى النبي ﷺ بالمدينة، ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ الإلحاد: الميل، يقال لحد وألحد: أي مال

عن القصد، وقرأ حمزة والكسائي «يلحدون» بفتح الياء والحاء، وقرأ من عداهما بضم الياء وكسر الحاء: أي لسان الذي يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمك أعجمي، يقال: رجل أعجم وامرأة عجماء: أي لا يفصحان، والعجمة الإخفاء وهي ضد البيان، والعرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بها أعجمياً، قال الفراء: الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب، والأعجمي: هو العجمي الذي أصله من العجم، وقال أبو علي الفارسي: العجمي المنسوب إلى العجم الذي لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم، والأعجمي المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً، وهذا لسان عربي وكذلك الأعجم مبین، الإشارة إلى القرآن، وسماه لساناً لأن العرب تقول للقسيمة والبيت لساناً، ومنه قول الشاعر:

لسان الشر تهديها إلينا وخنث وما حسبتك أن تخوننا^(١)

أو أراد باللسان البلاغة فكأنه قال: وهذا القرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح فكيف تزعمون أن بشرا يعلمه من العجم وقد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه وأنتم أهل اللسان العربي ورجال الفصاحة وقادة البلاغة، وهاتان الجملتان مستأنفتان سيقتا لإبطال طعنهم ودفع كذبهم^(٢).

قال الإمام الطبري في تفسير الآية: «يقول تعالى ذكره: ولقد نعلم أن هؤلاء المشركين يقولون جهلاً منهم: إنما يعلم محمداً هذا الذي يتلوه بشر من بني آدم وما هو من عند الله. يقول الله تعالى ذكره مكذبهم في قيلهم ذلك: ألا تعلمون كذب ما تقولون، إن لسان الذي تلحدون إليه يقول: تميلون إليه بأنه يعلم محمداً أعجمي؟ وذلك أنهم فيما ذكر كانوا يزعمون أن الذي يعلم محمداً هذا القرآن عبد رومي فلذلك قال تعالى: ﴿لِسَانَ الَّذِي يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ يقول: وهذا القرآن لسان عربي مبين.

واختلف القراء في قراءة قوله: «يلحدون» فقراءته عامة قراء المدينة والبصرة: ﴿لِسَانَ

(١) هذا البيت لأعشى باهلة نقله الإمام القرطبي في تفسيره (١٠/١٧٩)، والشوكاني في فتح القدير (٤/٢٦٥).

(٢) تفسير فتح القدير (٣/٢٧٩).

الَّذِي يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ ﴿ بضم الياء من ألد إلحادا بمعنى يعترضون ويعدلون إليه ويعرجون إليه من قول الشاعر:

قدني من نصر الخبيبين قدي ليس أميري بالشحيح الملحد ()

وقرأ ذلك عامة قراء أهل الكوفة «لسان الذي يلحدون إليه» بفتح الياء يعني: يميلون إليه من لحد فلان إلى هذا الأمر يلحد لحدًا ولحودًا. وهما عندي لغتان بمعنى واحد فبأيتها قرأ القارئ فمصيب فيها الصواب. وقيل ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ يعني: القرآن، كما تقول العرب لقصيدة من الشعر يعرضها الشاعر: هذا لسان فلان، تريد قصيدته، كما قال الشاعر:

لسان السوء تهديها إلينا وحنث وما حسبتك أن تحينا ()
يعني باللسان القصيدة والكلمة () .

وقال ابن كثير في تفسير الآية: «قال الله تعالى رادا عليهم في افتراءهم ذلك: ﴿ لِسَانٌ الَّذِي يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أي: القرآن، أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أرسل كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل» () .

وعلق الإمام القرطبي بعد ذكره لأقوال الكفار حول هذه الشبهة فقال:

«قلت: والكل محتمل، فإن النبي ﷺ ربما جلس إليهم في أوقات مختلفة ليعلمهم مما علمه

(١) جعل عبد الله بن الزبير أبا خبيب ومن كان على رأيه عددًا ولم يصفهم بالياء فيقول الخبيبيون قال أبو عبيدة يعني بالخبيبين أبا خبيب ومصعبًا أخاه، كتاب مجاز القرآن (١/١٠٧).

(٢) كتاب الكشف والبيان للثعلبي (٧/٤٣٠)، مغني اللبيب عن كتب الأعراب (١/٦٨)، حجة القراءات باب ثم (١/٣٩٤).

(٣) تفسير جامع البيان للإمام الطبري (٧/٦٤٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٧٧٤).

الله وكان ذلك بمكة. وقال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة لأنه يجوز أن يكونوا أومؤوا إلى هؤلاء جميعا وزعموا أنهم يعلمونه.

ويعني باللسان القصيدة ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أي أفصح ما يكون من العربية^(١).

٣- الحوار في الكتب المنزلة من عند الله:

لقد أنزل الله تعالى كتبه على أنبيائه وجمع لهم فيها كل ما فيه صلاح الإنسان في دنياه وآخرته، من أمر الشرائع والتعاليم والأحكام، وما يلحق بها من قصص وأخبار، وعظات وأمثال، ودلائل وبراهين وغير ذلك.

وجه الله هذه الكتب لأصحاب الحضارات وغيرهم على مر العصور، وحاورهم فيها إجمالا وتفصيلا، فأوجب عليهم الإيمان بها، لأن الإيمان بالكتب السماوية إيمان بالمنهج الإلهي كله الذي أوحاه الله تعالى إلي رسله، وللإيمان بالكتب السماوية جانبان: الأول: وجوب الإيمان بأعيان ما سمي لنا من هذه الكتب كالنوراة والإنجيل والزابور وصحف إبراهيم وموسى، ثانيا: وجوب الإيمان بكل ما جاء فيها من القواعد والأحكام، والدلائل والأخبار... إلخ.

لقد حاور الوحي الإلهي المنزل على كل نبي أهل عصر ذلك النبي، وختم الوحي بالقرآن الكريم الذي حاور البشرية كلها سابقها ولاحقها في أمر هذه الكتب المنزلة من عند الله فأخذ الحوار صورة من اثنتين وهما:

أولا: إجمالا

من حيث كونها منزلة من عند الله مع سوق الأدلة القاطعة والبراهين الدالة على ذلك. ومثال ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ آخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ

(١) تفسير الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٥٨/١٠) بتصرف.

أَقْفَالَهَا ﴿ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْعَلُوهُ قِرَاطِيْسَ تُبَدُّوْنَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ نَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿ [الأنعام: ٩١]، وقال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴿ [الأعراف: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَيْفَرُون ﴿ [١٤٥] قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ [١٤٦] فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿ [القصص: ٤٨-٥٠]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَن اسْتَعْظَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ [١٤٧] فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ [هود: ١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿ [الإسراء: ٨٨].

فلما عجز الكفار أمام هذه الأدلة وغيرها طلبوا كتبها غير التي نزلت وبطريقة غير التي بها نزلت وبواسطة غير من بها نزل، ونبى غير الذي عليه نزلت كما حكي القرآن الكريم لنا ذلك فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَتَلَّىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ [١٤٨] قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمْرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿ [يونس: ١٥-١٦]، وقال عنهم تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿ [١٤٩] أَوْ تَكُونَ لَكَّ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿ [١٥٠] أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتِ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِلِلِّ وَالْمَلَكِ قَبِيلًا ﴿ [١٥١] أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ

تُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿[الإسراء: ٩٠-٩٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [سبأ: ٣١].

ورفضوا الإيذان لأن الذي نزل به جبريل كما بين ذلك تعالى فقال: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧-٩٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢].

بل سخرُوا من الرسل ومن بشريتهم كما قال تعالى عن حوار الرسل جميعا لأمرهم من أصحاب الحضارات وغيرهم ورد أمرهم عليهم، وهو تعالى يصورهم وكأنهم جميعا على صعيد واحد؛ الرسل في جانب وأمرهم في الجانب الآخر: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۗ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۗ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٠﴾ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَنَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ خُنَّا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلِكُمْ وَلٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ٩-١١]، وقال تعالى: ﴿ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلِكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣]، وقال تعالى عن قوم نوح: ﴿ فَقَالَ أَلْمَلُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا

﴿الْمُؤْمِنُونَ: ٢٤﴾، وقال تعالى عن قوم هود وقيل ثمود وهو الراجح لذكر الصاعقة في إهلاكهم: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا كَشَرْتُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، وقال تعالى عن ثمود: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، وقال تعالى عن أهل مدين: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦]، وقال تعالى عن أهل قرية حبيب النجار صاحب قصة يس في خطابهم لأنبيائهم الثلاثة الذين بعثوا إليهم: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وقال تعالى عن قريش وكفار مكة: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

فدعوى أهل الباطل من أصحاب الحضارات غالبا واحدة لا تكاد تتغير مع مرور الأزمان وإن اختلفت الصور وطرق العرض.

فالإيمان بالكتب المنزلة من عند الله تعالى سمة هذه الأمة وأحد مصادر عزها وهيمنتها، قال صاحب الظلال رحمه الله تعالى في ظلاله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤] وهي الصفة اللاتقة بالأمة المسلمة، وارثة العقائد السماوية ووارثة النبوات منذ فجر البشرية، والحفيظة على تراث العقيدة وتراث النبوة، وحادية موكب الإيمان في الأرض إلى آخر الزمان. وقيمة هذه الصفة هي الشعور بوحدة البشرية، ووحدة دينها، ووحدة رسلها، ووحدة معبودها. قيمتها هي تنقية الروح من التعصب الذميم ضد الديانات والمؤمنين بالديانات ما داموا على الطريق الصحيح. قيمتها هي الاطمئنان إلى رعاية الله للبشرية على تطاول أجيالها وأحقابها. هذه الرعاية البادية في توالى الرسل والرسالات بدين واحد وهدى واحد. قيمتها هي الاعتزاز بالهدى الذي تتقلب الأيام والأزمان وهو ثابت مطرد كالنجم الهادي في دياجير الظلام^(١).

(١) في ظلال القرآن: (١/ ٤١).

ثانياً: الإيمان بما جاء في الكتب تفصيلاً:

«الكتب السماوية تمثل أوعية التعاليم الربانية للبشر، وهي جميعاً كتب هداية وإرشاد في المقام الأول، وكل ما يأتي في غضونهما من الحكم والأمثال، والقصص، والأخبار، وحقائق العلم، وعجائب الكون في الزرع، والضرع، والأنفس والآفاق، وتصريف الرياح، وتسخير السحاب، وانتظام الفلك كل ذلك يأتي تبعاً للغرض الأول ووسيلة له، إذ المقصود هداية البشر إلى ربهم، والتزامهم تعاليمه التي تحقق سعادتهم في الدارين»^(١).

وهذه التعاليم على حالين وهما:

أولاً: تعاليم اتفقت بين جميع الأنبياء في أصولها وهي التوحيد والعبادة كما قال تعالى عن دعوة جميع أنبيائه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى عن دعوة نبيه نوح: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَنْفَوْرِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَوْيَاقُونَ ﴿٣﴾ قَالَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْفَوْرِي اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْفَوْرِي اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وقال تعالى عن دعوة نبي الله هود: ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوْرِي اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوْرِي اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿١﴾ [هود: ٥٠].

وقال تعالى عن دعوة نبي الله صالح: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا

(١) المنهاج القرآني في التشريع (ص ٣٨١).

﴿ وَاللَّهُ فِإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [النمل: ٤٥]، ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقَوْمِرْ
 آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ
 ءَايَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ الْعِيسَى ﴾ [الأعراف:
 ٧٣]، ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقَوْمِرْ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ
 مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١].

قال تعالى عن دعوة نبي الله عيسى عليه السلام: ﴿ مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ
 آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنتَ الرَّقِيبَ
 عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ
 آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا
 لِلظَّالِمِينَ مِّنْ أَنْصَارٍ ﴾ [البقرة: ٧٢].

ثانياً: تعاليم تباينت بين الأنبياء، فكل نبي أنزل الله عليه من الشرائع ما يستقيم به قومه
 فهو لهم كاف ومغن عن كل تشريع سواه من حيث زمانه ومكانه، قال تعالى: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا
 مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ
 فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨].

لقد بعث الله كل نبي إلى قومه خاصة وأنزل عليه من الشرائع ما يصلحهم ويكفيهم، ولذا
 ما منهم من نبي إلا وجه ندائه ودعوته إلى قومه خاصة كما رأينا في الآيات السابقة: ﴿ وَلَقَدْ
 أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقَوْمِرْ آعْبُدُوا ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ
 يَنْقَوْمِرْ آعْبُدُوا ﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقَوْمِرْ آعْبُدُوا ﴾ [الأعراف:
 ٧٣]، ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ آعْبُدُوا ﴾ [المائدة: ٧٢].

لقد تكفل الحق تبارك وتعالى بإصلاح كل أمة من أمم الأرض وخاصة أصحاب
 الحضارات منهم؛ فما خلت أمة من نبي منهم يتحدث بلسان قومه سيق معه من الشرائع
 التفصيلية ما يصلحهم ويسد جوعتهم واحتياجهم إلى تشريع غيره، بل ويعدّهم تعالى

ويؤهلهم لعبادته تعالى وفق أوامره وتعاليمه.

لقد وكل الله لأهل كل شرعة حفظها، كما قال تعالى عن شرعة من أواخر ما نزل من الشرائع الخاصة وهى التوراة: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ مَّحْكُمٌ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاحْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

فقوله تعالى: «اسْتَحْفَظُوا». أي بما طلب منهم حفظه، فالسين والتاء إذا دخلت على الفعل عنت طلبه، قال الإمام القرطبي: «أي استودعوا من علمه، والباء متعلقة بالربانيين والأخبار كأنه قال: والعلماء بما استحفظوا. أو تكون متعلقة بـ«يحكم» أي يحكمون بما استحفظوا»^(١). وقال ابن كثير: «أي بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهره ويعملوا به»^(٢)، وقال الإمام الشوكاني: «قوله: ﴿ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ الباء للسببية، واستحفظوا أمروا بالحفظ: أي أمرهم الأنبياء بحفظ التوراة عن التغيير والتبديل، والجار والمجرور متعلق بـ«يحكم»: أي يحكمون بها بسبب هذا الاستحفاظ»^(٣).

الواقع يشهد أن طبيعة الإنسان أنه يغلب عليه النسيان، فأني لمن وكل إليهم حفظ شريعتهم أن يحفظوها، وهذا ما حدث بالفعل فبدلوا وغيروا عمدا أو سهوا، وكأن الحق تبارك وتعالى أراد لكل شرعة أنزلها على نبي أن تؤدي مهمتها بإصلاح قومه ثم تنسى وتنسخ، وبعد أن عرفت كل أمة ربهها ولزوم طاعته وعبادته لا تجد أمامها إلا الكتاب الخاتم الذي نزل على خاتم الأنبياء محمد ﷺ؛ وهو الكتاب الوحيد الذي لم يكل الله للعباد حفظه، بل لما نزل على النبي ﷺ خاف من تفلته فكان يردد مع جبريل عند تلاوته عليه فنهاه الحق تعالى عن ذلك وبين تعالى أنه وحده هو المتكفل بحفظه، فقال تعالى: ﴿ لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾

(١) تفسير القرطبي (٦/ ١٧٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٠).

(٣) تفسير فتح القدير (٢/ ٦٣).

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿٩﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، بل يقرون الحق تبارك وتعالى بين حفظه للقرآن ونسيان أذكر البشر وأحفظهم وهو آدم عليه السلام، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١﴾ [طه: ١١٥].

فإذا كان أذكر البشر آدم عليه السلام نسي فأنى لمن دونه في الحفظ والذكر ألا ينسى؟

ثالثاً: فضل القرآن الكريم ومنزلته:

لقد أنزل الله تعالى كتابه الخاتم وهو القرآن الكريم وجعله معجزة الدهر، ومد به النبوة مدداً لا يقبل النسخ، وخصه بخصائص ليست لغيره من الكتب، منها:

١- أنه معجزة الدهر: بمعنى أنه المعجزة الوحيدة التي أُيد بها نبي مرسل من عند الله لإثبات صدق نبوته ولم تتوقف بموت النبي كسائر المعجزات التي أُيد بها الأنبياء، فالعصا التي أُيد الله بها نبيه موسى عليه السلام توقف تحولها لحية وكونها معجزة بعد موته عليه السلام، والطين الذي تحول لطير في يد المسيح عليه السلام لم يعد يراه الناس بعد رفع المسيح يتحول، وأما القرآن فهو معجزة باقية إلى قيام الساعة يتحدى بها حملته أهل الأرض جميعاً إلى قيام الساعة أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعضه أو سورة منه، فهو معجزة للنبي وأتباعه إلى قيام الساعة لا تزال تثبت وتبرهن صدق هذه الرسالة وصدق نسبتها إلى الله تعالى والله الحمد والمنة، بل لا تزال تحاور أصحاب الحضارات بعده إلى قيام الساعة.

٢- كون شريعة القرآن الكريم لا تقبل النسخ: لقد خاطب القرآن الكريم الناس كافة من مشرق الأرض إلى مغربها ومن زمان النبوة إلى قيام الساعة قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]، وجاءهم بتشريع كاف للجميع، محفوظ بحفظ الله تعالى له حتى تتاح الفرصة لكل إنسان لكي يعبد الله على بصيرة ووحى من ربه، ومعه من الإعجاز ما يثبت صدقه، قال تعالى: ﴿ قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحٰنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وفي الحديث الشريف: «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبه، غير أنه لا يوحى إليه...»^(١).

(١) رواه الحاكم في المستدرک من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص باب أخبار في فضائل القرآن جملة رقم (١٠٨٦) (١/٥٥٢)، والبيهقي في شعب الإيمان، وصححه وأقره الذهبي.

٣- أن القرآن الكريم جمع الله تعالى فيه كل ما تفرق في الصحف والكتب السابقة من أصول الدين وشرائعه، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]. حتى لا يبقى لأصحاب الحضارات بعده احتياجا لتشريع معه ما بقى الزمان.

٤- لقد جاء القرآن في تشريعه مهيمنا على كل الشرائع السابقة وزاد عليها ما اقتضاه فارق الزمان الذي نزل فيه وكل زمان بعده، وتنوع الحضارات، وما اقتضاه تغير الأجيال وطبيعة كل جيل، من قواعد وأحكام تصلح لكل ذلك على الدوام، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]، معنى «مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ»: «أي شاهدا، وقيل: رقيبا وقيل مؤتمنا، وقيل: قفانا، يقال: فلان قفان على فلان إذا كان يتحفظ أموره، فقيل: القرآن قفان على الكتب، لأنه شاهد بصحة الصحيح منها وسقم السقيم»^(١)، وقال الإمام الشوكاني: «والمعنى على قراءة الجمهور: أن القرآن صار شاهدا بصحة الكتب المنزلة ومقررا لما فيها مما لم ينسخ وناسخا لما خالفه منها ورقيبا عليها، وحافظا لما فيها من أصول الشرائع، وغالبا لها لكونه المرجع في المحكم منها والمنسوخ ومؤتمنا عليها لكونه مشتملا على ما هو معمول به منها وما هو متروك»^(٢)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

٥- لقد جعل الله تعالى من معجزات هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمنا للمعنى الجم، بحيث تقصر العقول البشرية في كل الحضارات بكل إمكاناتها وما معها من آلات حديثة أو ستستحدث عن إحصائه أو استيفائه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْهَارٍ مَا نَفَذْتُمْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]،

(١) نزاهة القلوب في تفسير غريب القرآن للسجستاني في تفسير الآية المذكورة.

(٢) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٧٠).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

٦- لقد حفظ الله تعالى كتابه ليكون حجة الله تعالى الدائمة على عباده بعد ختم النبيين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿١٥﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]، وقال تعالى: ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَعَلَّ يُكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ فَلَذَلِكَ فَادَّعِ وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا لَّا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥].

٤- الحوار في البعث والجزاء:

إن الإيثار باليوم الآخر يعنى الربط بين الدنيا والآخرة، والمبدأ والمصير، والعمل والجزاء، ويشعر الإنسان أنه ليس مهملاً، وأنه لم يخلق عبثاً ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وأنه لن يترك سدى ﴿ أَلَمْ حَسِبْ أَنَّ الْإِنْسَانَ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]، وأن العدالة المطلقة في انتظاره، ليطمئن قلبه وتستقر بلابله^(١)، ويفيء إلى العمل الصالح، وإلى عدل الله ورحمته في نهاية المطاف.

واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب. بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ما له في هذا الوجود، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء، وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك وراء هذا الحيز الصغير المحدود.

(١) رجل بلابل خفيف اليدين ولا يخفى عليه شيء، لسان العرب (١١/٦٣)، وقال ابن الأعرابي: البلبله تفريق المتاع وتبديده، قال ابن عباد: البلبله خرزة سوداء من صدف، وقال غيره البلبله، شد لهم والوساوس في الصدر، والبلابل جمع بلبال تاج العروس (١/٦٨٩١).

كما قال مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿يَنْقُومِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

إن الإيمان باليوم الآخر هو مفتاح الإيمان بأصول الإيمان الستة، فمن أيقن باليوم الآخر آمن بالله مالك ذلك اليوم، ومن آمن بالله آمن بملائكته وكتبه ورسله.

واليوم الآخر أمر غيبي محض لم تظهر للناس بوادره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥-٦٦].

ولا سبيل إلي معرفة شيء منه على الحقيقة إلا عن طريق الوحي الإلهي والمنقول إلينا عن طريق رسل الله المعصومين، ولذا أوغل الناس في التشكيك فيه والريب منه قديماً وحديثاً، أصحاب حضارة أو غيرهم، وجاء بيان القرآن في أمره قوياً شديداً، فأفرده الحق تبارك وتعالى بطول الذكر وكثرتة، ولا أدل على الاهتمام به من كون الناظر إلي أسماء السور -وهي عنوان لما فيها- يجد طابع هذا الاهتمام البالغ بشأن اليوم الآخر، وهو يأخذ عدة مظاهر؛ ومنها:

أ - بعض السور تسمى باسم من أسماء هذا اليوم. مثل سور: الواقعة، الحاقة، القيامة، النبأ، الغاشية، القارعة.

ب- بعض السور تسمى بشيء من المظاهر الكونية الهائلة التي تمهد له. مثل سور: الدخان، التكوير، الانفطار، الانشقاق، الزلزلة.

ج - بعض السور تسمى باسم ما يقع في هذا اليوم أو ما يصاحبه. مثل سور: الأعراف، الزمر، الجاثية، الحشر، التغابن، المعارج^(١).

أضف إلي هذا أن معظم سور القرآن لا تخلو من ذكر القيامة أو ما يتعلق بها مرة أو مرات عديدة في السورة الواحدة.

(١) المنهاج القرآني في التشريع (ص ٣٥٧-٣٥٨) بتصرف.

بل إن جميع الكتب المنزلة من الله تعالى على جميع الأنبياء والموجهة لأصحاب الحضارات وغيرهم من البشر قد اهتمت أعظم الاهتمام بأمر يوم القيامة وشئون الآخرة، حتى إنها من أولها إلى آخرها وهو القرآن الكريم قد أظهرت غاية الاهتمام بهذا الأصل إثباتا وتدليلا، وبيانا وتفصيلا، ودحضا لشبه المنكرين، وتأكيذا وتكريرا لجوانبه جميعا، حتى كأن الناس يرونه رأي العين، ويسمعون ضجة القيامة وهول المحشر والفرع الأكبر وما وراء ذلك من نعيم مقيم أو عذاب وجحيم.

دعوة الأنبياء لأصحاب الحضارات للإيمان باليوم الآخر:

ومنذ فجر التاريخ ورب العباد يذكرنا باليوم الآخر، فلقد أخذ الله العهد على آدم وذريته وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ استعدادًا لليوم الآخر، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، بل إن مفسد الحضارات ومضل البريات إبليس طلب من ربه لما طرده من الجنان الإنظار إلى يوم القيامة لتتاح له أطول فرصة لإضلال العباد، وعن هذا قال تعالى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأُحْتَنِكَ بِ ذُرِّيَّتِهِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢].^(١)

لقد جاء الوعيد للبشرية من عذاب يوم القيامة مع بدء هبوطهم إلى الأرض، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿٣١﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

وهذا نبي الله نوح يحذر قومه وهم أصحاب حضارة من هذا اليوم العظيم كما في قوله تعالى عنه: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّي غَيْرُهُ إِنِّي

(١) لأحتنك: قال ابن عباس: لأستولين، وقال ابن زيد: لأضلنهم، وقال الطبري: لأستأصلنهم، وقال الألويسي: لأستولين عليهم استيلاء قويا من قولهم حنك الدابة واحتنكها إذ جعل في حنكها الأسفل جبلا يقودها به.

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩]، وحكي تعالى عنه قوله: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]، وقال تعالى عن نبيه هود وتحذيره لقومه وهم أصحاب حضارة: ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْبُيُوتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِمْ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]، وقال تعالى عن نبيه شعيب حين حذر مدين وهم أصحاب حضارة من ذلك اليوم العظيم فقال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمَكِّيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنَّي أَرَىكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وهذا نبي الله إبراهيم يحذر منه قومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَأَتُهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال تعالى عن خاتم أنبيائه وصفوة رسله محمد ﷺ: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]. وقال تعالى على لسانه: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ مُخَيِّبِكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتِكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجنائية: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [المتحنة: ٣].

تكذيب أصحاب الحضارات باليوم الآخر وأقوالهم فيه:

وحكي الحق تبارك وتعالى أقوال بعض أصحاب الحضارات على مر التاريخ، وتعجب

كيف اتفقت في مضمونها وتشابهت كأنها أملاها بعضهم لبعض مع ما بينهم من تفاوت زماني ومكاني، وصدق تعالى حين قال: ﴿أَتَوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]، وما هي أقوالهم على السنة جميع البشر: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، وقالت عاد أو ثمود: ﴿أَيَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿هِيَآتْ هِيَآتْ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٧]، وقال كفار قريش: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجنائية: ٢٤].

ومن أسباب تكذيبهم بالآخرة ركونهم للعالمية وللعالمية ففتنتهم بزيتها من مال وبنين وإمهال الله لهم حتى ظنوا أن من أعطاهم المال والبنين - أكثر من غيرهم - راض عنهم لذا أعطاهم، ورضاه يعني عندهم أنه أكثر عطاء لهم في الآخرة لو كان هناك آخرة، وقد قال ذلك صاحب الجنتين لصاحبه وهو يحاوره: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ﴿١٦﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿١٧﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿١٨﴾ [الكهف: ٣٤-٣٦]، بل قال الكثير غيره فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿أَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿١٩﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠﴾ إِنْ الَّذِينَ هُمْ مِنْ حَشِيَّةٍ رَّبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٢٤﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٦١].

الرد على تكذيب أصحاب الحضارات باليوم الآخر وبيان مدى الحاجة إليه:

أ. الإيمان باليوم الآخر هدف وغاية ومصير:

لقد خلق الله الموت والحياة ليختبر ويبتلي عباده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٢٦﴾ [الملك: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ

رَبِّكَ سَرِيعَ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧]، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالنَّشْرِ وَالْحَيْثِرِ فَتَنَّا وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فانقسم الناس إلى محسن ومسيء، وظالم ومظلوم، ومؤمن وكافر، ومصلحين في الأرض ومفسدين فيها.

ولو انتهت الحياة بموت أبدي لاستوت هذه الأطراف جميعها، فيكون هذا الخلق العظيم عبثا وباطلا إذ يستوي فيه المحسن والمسيء، وتعالى الله عن ذلك الفعل علوا كبيرا.

لذا كتب الله على عباده الفناء وكتب لذاته البقاء وحدد لعباده موعدا لقاء، وجعله غاية لفصل القضاء ولتوفية الجزاء وصيانة لوجودهم عن العبث ولمصيرهم عن البطلان، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٥].

وهنا ربط الحق تبارك وتعالى بين الخلق والساعة وبين السعي والساعة ليقطع على أهل الجاهلية ظنهم، وأن الجزاء لا محالة واقع، والحساب لا محالة قائم واللقاء لا محالة آت. قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعَدُكُمْ ﴾ [الذاريات: ٥-٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْعٌ ﴿١﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ [الطور: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿ سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿٢﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ [المعارج: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوْعٌ ﴿٣﴾ [المسلمات: ٧]، وقال تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿٤﴾ لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ [الواقعة: ١-٢].

بل يحسم القرآن الأمر حسما بالغا بقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٧-٢٨]، وقال تعالى: ﴿ أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٨﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿المؤمنون: ١١٥-١١٦﴾، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿الجاثية: ٢١﴾، فلا بد من يوم يوفي فيه المحسن من أصحاب الحضارات وغيرهم على إحسانه كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿الرحمن: ٦٠﴾، وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٦﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿المطففين: ٣٤-٣٦﴾، ويعلم المجرم فيه منهم حقيقة إجرامه ويجنى فيه شوك عصبانه كما قال تعالى: ﴿سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرُ ﴿القمر: ٢٦﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي كَفَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿النحل: ٣٨-٣٩﴾، وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿الشعراء: ٢٢٧﴾.

ب. الإيمان باليوم الآخر مصدر قوة:

فالإيمان باليوم الآخر من أقوى المعينات علي فعل الخيرات وأداء الواجبات، وإلزام الحجة لأصحاب الحضارات وغيرهم، لقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿البقرة: ٤٥-٤٦﴾، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُوكٌ مُصَدِّقٌ لَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿الأنعام: ٩٢﴾.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿الأحزاب: ٢١﴾، وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ﴿المتحنة: ٤﴾، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿المتحنة: ٦﴾، فالْمُؤْمِنُ الَّذِي يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ هُوَ الَّذِي يَقْوَىٰ عَلَى الْإِتْيَانِ

بعزائم الدين والتأسي بالنبين لا غيره، قال صاحب زاد المسير: «والمعنى أن الأسوة برسول الله إنما كانت لمن كان يرجو الله واليوم الآخر»^(١). قال الإمام الشوكاني في تفسيره: «واللام في ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ متعلق بحسنة أو بمحذوف هو صفة حسنة. أي: كائنة لمن يرجو الله. وقيل: إن الجملة بدل من الكاف في «لكم» ورده أبو حيان وقال: إنه لا يدل من ضمير المخاطب بإعادة الجار. ويجاب عنه بأنه قد أجاز ذلك الكوفيون والأخفش وإن منعه البصريون»^(٢).

ومن آمن بالله ووحيه وأيقن بالآخرة مكنه الله من الهداية ورزقه الفلاح، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٥٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة: ٤-٥].

يقول الإمام البيضاوي: «ومعنى الاستعلاء في «عَلَىٰ هُدًى» تمثيل تمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه بحال من اعتلى الشيء وركبه، وقد صرحوا به في قولهم: امتطى الجهل وغوى واقتعد غارب الهوى.

وذلك إنما يحصل باستفراغ الفكر وإدامة النظر فيما نصب من الحجج، والمواظبة على محاسبة النفس في العمل، ونكر «هدى» للتعظيم، فكأنه أريد به ضرب لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره»^(٣).

ولقد بين الحق تبارك وتعالى أن شرط قبول العمل كونه صالحا - موافقا لشرع الله - خالصا لوجهه تعالى، وهذا الأمر لا يتحقق إلا لمن يرجو ويستهدف لقاء ربه، لذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

(١) تفسير زاد المسير (٦/٣٦٧).

(٢) تفسير فتح القدير (٤/٣٨٤).

(٣) تفسير البيضاوي (١/١٢٩).

ج. ترك الإيمان سبب الشرور والمعاصي:

«يفسر القرآن الكريم كثيرا من مظاهر السلوك الجاهلي الأعوج لكثير من أصحاب الحضارات وغيرهم بعلته الأصلية، وهي إنكار الآخرة، واعتقاد أن هذه الدنيا هي بداية ونهاية المطاف ولا شيء بعدها: ﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٩]، ومن ثم فلا بد -بزعمهم- من انتهازها انتهازا، وتحصيل أقصى اللذات والشهوات فيها، وتحقيق أكبر قدر من المصالح الشخصية كالمال، والمجد، والجاه، والسلطان، والشهرة، أو المصالح القومية ونحوها، ولو أدى ذلك إلى خراب الأرض، وإهلاك الحرث والنسل، والارتفاع على جث الآخريين نتيجة غلظة القلوب، وموت الشعور بموقف الحساب، وفقدان حاسة اليقين بالرجعة والجزاء»^(١).

ومن لا يوقن بالآخرة يتجرأ على اقتراف المعاصي، لقوله تعالى: ﴿ وَيَلِّ اللُّمُطَفِّينَ ﴾^(١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ [المطففين: ١-٦]، فدأبهم التطفيف والكيل بمكاييل مختلفة تماما بين ما هو له أو عليه، وعلى الضعيف واليتيم معتد، لقوله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ [الماعون: ١-٢]، بل لا يعرف للهداية سبيلا لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٤]، لا يحتمل قلبه ذكر الله، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥]، لا ترى منهم إلا قلوبا طائشة حمقاء، تسارع إلي مصارعها في كل موطن وهي تظن نفسها على شيء، قال تعالى: ﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهُهُ وَاحِدٌ فَأَلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٢].

ولذلك عقب القرآن الكريم بذكر تهكمهم على الوحي الإلهي، فقال تعالى في الآيات التي

(١) المنهاج القرآني في التشريع (ص ٣٦٠).

بعدها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿﴾ [النحل: ٢٤-٢٥]، يقول الإمام البيضاوي في تفسير الآية الأولى: «بيان لما اقتضى إصرارهم بعد وضوح الحق وذلك عدم إيمانهم بالآخرة، فإن المؤمن بها يكون طالبا للدلائل متأملا فيما يسمع فينتفع به، والكافر بها يكون حاله بالعكس»^(١). ويظهر من هذه الآيات وغيرها أن عدم الإيثار بالآخرة علة متفردة لكل خلل في الاعتقاد أو السلوك.

د. القيامة حقيقة واقعة لا بد منها:

القيامة والدار الآخرة من عقائد الإسلام الثابتة، جاءت على لسان كل رسول أرسله الله لعباده خاصة أصحاب الحضارات منهم، والقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة هما أوثق المصادر حديثا عنها، وتصحيحا لعبث الفكر البشري في شأنها، ولتحريفات أهل الكتاب في أخبارها.

ويناقش القرآن الكريم الذين ينكرونها، أو يظنونها خدعة كبيرة اخترعها الرسل توسلا للإصلاح، واستتباع الناس، أو اخترعها الإنسان هربا من ضغط الواقع إلى عالم المثالية والخيال، كما يزعم أدعياء الفكر في كل العصور.

لقد دأب القرآن الكريم على تكرير أحقيتها، وصدق وقوعها، بكل الأساليب كالخبر المجرد، والوعد المؤكد، وتصوير مقدماتها، وأحوالها، ومنازلها، وأهوالها، ومواقف الحساب، والميزان، والصراف، و«الجنة» وغرفها، وأنهارها، وحورها، وولدانها، وشرابها، وصنوف طعامها وفاكهتها.

وكذلك يجرب خبر الجزم واليقين عن «النار»، ودرجاتها، وأبوابها، وخزنتها وعددهم وصفتهم، وما فيها من طعام الزقوم، والغسلين، وشراب الصديد، والحميم، حتى تخاصم أهل النار، وتلاعنهم، وندمهم، واستجدائهم التخفيف، وغير ذلك مما يطول ذكره^(٢).

(١) تفسير البيضاوي (١/٣٩٢).

(٢) المنهاج القرآني في التشريع (ص ٣٦٢-٣٦٣) بتصرف.

بل ما أقسم الله على شيء كما أقسم على وقوع ذلك اليوم، فقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨-٣٩]،
 لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿ [النحل: ٣٨-٣٩]،
 قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَنِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

ويؤكد الحق تعالى وقوعها تأكيدا جازما بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادٌ أَحْفِيهَا لَتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

ويبرزها تعالى في مقام الأمر الذي وقع وفرغ منه، قال تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

إن أهل الباطل كثيرا ما يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق مع قناعة نفوسهم بهذا الحق ومن ذلك أمر الساعة كما قال عنهم تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتِهِمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتُتُوا بِبَابِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، فأفحمهم الحق تعالى بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُخَيِّمُكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجنائز: ٢٥-٢٦].

فالذي أحيا آباءكم من قبل حتى قضوا آجالهم، وأحياكم من بعهدهم بعد أن كنتم جميعا عدما، ثم أمات آباءكم فلم يعجزه أحد منهم ولا منكم ثم يحييكم جميعا يوم جمعكم ليوم القيامة لا ريب فيه.

من أدلة وقوعها:

أولاً: الأدلة العقلية:

أ- الإقرار لله بالخلق ابتداءً، فالقادر على الخلق قادر على الإعادة. قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

فالذي خلق ابتداءً من غير مثال سابق أهون عليه الإعادة. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ولله المثل الأعلى، فكلمة «أهون» لا تعني أن هناك شيئاً أثقل على الله تعالى من شيء، بل تعني: أن الإعادة أهون عليه من البداية وكل هين عليه، قاله مجاهد وأبو العالية. وهناك قول ثان وهو: أن أهون بمعنى هين، فالمعنى: وهو هين عليه. وقد يوضع أفعال في موضع فاعل ومثله قولهم في الأذان: الله أكبر، أي: الله كبير. قال الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنبي لنا بيتاً دعائمها أعز وأطول

وقال معن بن أوس المزني:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل على أيننا تغدو المنيّة أول

أي: وإني لوجل. وقال غيره:

أصبحت أمنحك الصدود وإنني قسماً إليك مع الصدود لأميل^(١)

(١) هذا البيت الأول من قصيدة لمعن بن أوس المزني وهو أخ لعبد الله بن الزبير من الرضاة، كتاب مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني (١/٢٨٦).

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «وأهون بمعنى هين أي الإعادة هين عليه. قاله الربيع بن خيثم والحسن. فأهون بمعنى هين لأنه ليس شيء أهون على الله من شيء. قال أبو عبيد: ومن جعل أهون يعبر عن تفضيل شيء على شيء فقلوه مردود بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٣٠]، وبقوله: ﴿وَلَا يُؤْذِرُ حِفْظُهَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والعرب تحمل أفعال على فاعل، ومنه قول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا
أي دعائمه عزيمة طويلة. وقال آخر:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل
أراد: إني لوجل. وأنشد أبو عبيدة أيضا:

إني لأمنحك الصدود وإنني
أراد للمائل. وأنشد أحمد بن يحيى:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت
أراد: بواحد. وقال آخر:

لعمرك إن الزبرقان لباذل
لمعروفه عند السنين وأفضل

أي وفاضل. ومنه قولهم: الله أكبر إنما معناه الله الكبير. وروى معمر عن قتادة قال: «في قراءة عبد الله بن مسعود «وهو عليه هين». وقال مجاهد وعكرمة والضحاك: «إن المعنى أن

(١) الفرزدق: همام بن غالب الأموي ت ١١٠هـ، ديوانه (١٥٥٢)، كتاب الشعر والشعراء (ص ٤٧١).

(٢) البيت لأبي عبيدة الأحوص بن محمد الأنصاري، أموي توفي ١٠٥هـ، والقصيد في كتاب الإعجاز والإيجاز باب برد بن بشار (١/ ٢٥)، وطبقات ابن سلام (ص ٩٦)، والشعر والشعراء (ص ٥١٨). الأغاني (٤/ ٢٢٤).

(٣) نسب الألويسي وابن كثير وغيرهم هذا البيت للإمام الشافعي رحمه الله ونسبه القرطبي وغيره إلي أحمد بن يحيى ثعلب، ونسبه الطبري وابن الجوزي والشوكاني وغيرهم إلي طرفة بن العبد.

الإعادة أهون عليه - أي على الله - من البداية أي أيسر وإن كان جميعه على الله تعالى هينا، وقاله ابن عباس. ووجهه أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعباده يقول: إعادة الشيء على الخلاق أهون من ابتدائه، فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم أهون عليه من الإنشاء. وقيل: الضمير في «عليه» للمخلوقين أي: وهو أهون عليه، أي: على الخلق يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ويقال لهم: كونوا فيكونون فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفًا ثم علقًا ثم مضغًا ثم أجنة ثم أطفالًا ثم غلمانًا ثم شبانًا ثم رجالًا أو نساء. وقاله ابن عباس وقطرب. وقيل: أهون أسهل قال:

وهان على أسماء أن شطت النوى يحن إليها واله ويتوق^(١)

أي سهل عليها. وقال الربيع بن خيثم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال: ما شيء على الله بعزير. قال عكرمة: تعجب الكفار من إحياء الله الموتى فنزلت هذه الآية ﴿وَأَلَمْ تَلَمْهُ الْأَعْلَى﴾ أي ما أرادته جل وعز كان. وقال الخليل: المثل الصفة أي وله الوصف الأعلى ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥]: أي صفتها. وعن مجاهد: المثل الأعلى قول لا إله إلا الله ومعناه: أي الذي له الوصف الأعلى أي الأرفع الذي هو الوصف بالوحدانية، وكذا قال قتادة: إن المثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله ويعضده قوله تعالى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، وقال الزجاج: وله المثل الأعلى في السماوات والأرض أي قوله: وهو أهون عليه قد ضربه لكم مثلا فما يصعب ويسهل، يريد التفسير الأول^(٢).

قال الإمام الزمخشري: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] فيها يجب عندكم ويقاس على أصولكم ويقتضيه معقولكم؛ لأن من أعاد منكم صنعة شيء كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها، وتعذرون للصانع إذا خطى في بعض ما ينشئه بقولكم: أول الغزو أخرج، وتسمون الماهر في صناعته معاودا، تعنون أنه عاودها كرة بعد أخرى حتى مرن عليها وهانت عليه. فإن

(١) نسبه ابن منظور لابن بري، لسان العرب (٣٧١/١٥)، تاج العروس (١/٨٦٧٢).

(٢) تفسير القرطبي (٢١/١٤).

قلت: لم ذكر الضمير في قوله: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ والمراد به الإعادة؟ قلت: معناه: أن يعيده أهون عليه. فإن قلت: لم أخرت الصلة في قوله: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وقدمت في قوله: ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم: ٢١]؟ قلت: هناك قصد الاختصاص وهو محزه فقيل: هو علي هين وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هم وعافر، وأما هنا فلا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى. فإن قلت: ما بال الإعادة استعظمت في قوله: «ثم إذا دعاكم» حتى كأنه فضلت على قيام السماوات والأرض بأمره ثم هونت بعد ذلك؟ قلت: الإعادة في نفسها عظيمة ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء. وقيل الضمير في «عليه» للخلق^(١).

ويقرر تعالى بقوله: ﴿ إِنَّهُ رَبُّ يُبَدِّئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [يونس: ٤]، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم: ١١]، ويؤنبهم بقوله: ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [يونس: ٣٤]، ويبكتهم بقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءَلَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٤]، ويرد عليهم بقوله: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٩].

ب- يسر الإعادة وسهولتها وسرعتها. قال تعالى: ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَتَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ [الصفات: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَتُوْلَاءَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ [ص: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ [يس: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ ﴾ [يس: ٤٩].

لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿ [يس: ٥٣].

ج- قدرة الله تعالى المطلقة على خلق ما هو أعظم من الإنسان كخلقه السماوات والأرض وما بينهما وما بعدهما قال تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنَّا خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ [الصفات: ١١]، وقال تعالى: ﴿ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ ﴿٤﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٥﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَلْنَاهَا ﴿٧﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٨﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَاهَا ﴿٩﴾ [النازعات: ٢٧-٣٢]، وقال تعالى: ﴿ لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِّنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَئِن لَّا كَثُرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُقْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ سُحِّبَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

فالذي خلق السماوات والأرض وهما أعظم وأكبر من خلق الإنسان قادر على أن يفعل ما دون ذلك وهو الإعادة بعد الإماتة.

د - تأكيد القرآن على زوال الدنيا وقصر أمدها:

إن تسمية الدنيا عند الناس بالحياة الدنيا هو دليل على وجود حياة عالية وآخرة، وقيل أصلها من الدنو وقيل من الدناءة، وعن المعنى الأول قال صاحب لسان العرب: «وفي حديث الحج الجُمرة الدُّنيا أي القَرِيبة إلى مِنى وهي فُعِلَى من الدُّنُو، والدُّنيا أيضًا اسمٌ لهذه الحياة لِبُعْدِ الآخرة عَنْهَا، والسماء الدُّنيا لِقُرْبِهَا من ساكني الأرض، ويقال سماء الدُّنيا على الإضافة»^(١).

وعن المعنى الثاني قال صاحب لسان العرب: «والدُّنْيَةُ النَّقِيصَةُ، ويقال: ما كنت يا فلان دُنِيًّا ولقد دُنُوتَ تَدُنُّو دَنَاةً مصدره مهموز.

(١) لسان العرب (١٤ / ٢٧١).

فُرق بين مصدر دَنَا ومصدر دَنَا بجعل مصدر دَنَا دَنَاوَةً ومصدر دَنَا دَنَاةً كما ترى ابن السكيت يقال: لقد دَنَأَتْ تَدْنًا أَي سَفَلَتْ فِي فِعْلِكَ وَجَحْنَتْ، وقال الله تعالى: ﴿الَّذِي هُوَ أَذْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا﴾ [البقرة: ٦١]. قال الفراء: هو من الدَّناءة^(١).

وقد استعملت في القرآن الكريم على المعنيين وكذلك في السنة النبوية المطهرة.

فعل المعنى الأول سهاها القرآن العاجلة فقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧].

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «مالي والدنيا ما أنا والدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها»^(٢).

وكيف لا وأعمار أمة محمد بين الستين والسبعين عاما، ثلثها طفل غير مكلف والباقي من عمره ثلثه نوم بلا تكليف فكم بقي له؟ ثلاثون عاما أو يزيد قليلا، فكم تساوي في عمر الزمان.

وعلى المعنى الثاني سهاها تعالى متاعا فقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴿٢٦﴾ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَئِقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَعَلِمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَبًا ﴿٢٠﴾ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

(١) لسان العرب (١/ ٧٧).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسند عبد الله بن مسعود باب مالي والدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا رقم (٣٧٨١)، ورواه ابن ماجة في الزهد عنه رقم (٤٢٤٨)، وفي مسند أبي يعلى والبخاري.

معنى المتاع قال ابن منظور: «وقد ذكر الله تعالى المتاع والتمتع والاستمتاع والتمتع في مواضع من كتابه ومعانيها وإن اختلفت راجعة إلى أصل واحد قال الأزهري^(١): فأما المتاع في الأصل فكل شيء يُتَمَتَّعُ به ويُتَبَلَّغُ به ويُتَزَوَّدُ والفناء يأتي عليه في الدنيا».

قال الأزهري: «وكذلك قوله تعالى: «يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع» أي بُلْغَةٌ يُتَبَلَّغُ به لا بقاء له»^(٢)، وقال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عنها: «خير الدنيا أربع مطعم وملبس ومنكح ومركب، وخير طعامها إفراز حشرة، وخير ثيابها إفراز دودة، وخير مناكحها مبال في مبال، وخير مراكبها الخيل على ظهرها يُصرع الرجال»^(٣). بل وصفها تعالى بمتاع الغرور فهي بُلْغَةٌ أيام، أي ما يحتاج إليه المسافر من زاد لرحلته، فسرعة ذهابها دليل قيام ما بعدها من قيامة وبعث وحساب.

هـ- المقدمات والمشاهد:

لقد أخبر الحق تبارك وتعالى عما يحدث يوم القيامة تفصيلاً، بل ذكر أدق التفاصيل الحسية التي تقع في ذلك اليوم.

ومن مقدمات ذلك الانقلاب الكوني الرهيب الذي لا يبقى معه شيء على حاله فلا حضارات ولا نظم ولا قوانين بشرية ولا طاقة للبشرية في فعل شيء أو دفع شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿١﴾﴾ [المرسلات: ٧]، وقال تعالى: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ [المعارج: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم: ٥٨].

فعند وقوعها السماء تشقق وتنظف وتكشط وتطوى كطي السجل للكتب، والأرض ترج

(١) الأزهري: صاحب كتاب تهذيب اللغة، من مشاهير أولى معاجم اللغة، والذي قال عنه ابن منظور لم أجد في كتب اللغة أجهل منه، وقال الزمخشري: ألفه الأزهري بعدما تجاوز السبعين ونهج فيه على منوال كتاب «العين» واشهر نسخه ما كتبه ياقوت الحموي سنة ٦١٦هـ.

(٢) لسان العرب لابن منظور (٨/٣٢٨).

(٣) إفراز الحشرة: غسل النحل، إفراز الدودة: الحرير، مبال في مبال: مواضع البول تلتقي مع مواضع البول، على ظهرها يصرع الرجال: تنهي أجالهم بحادث أو غيره فيموتون.

وتزلزل وتدك وتبدل، والجبال تسير وتبس وتصير كثيبا مهيلا فعنها منفوشا فهباء منثورا، فتدك دكا وتنسف نسفا فتكون قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، والقمر يخسف وبالشمس يجمع، والشمس تكور ونورها يذهب وحرّها يسعّر ومن رءوس العباد تقرب، والكواكب تتناثر والنجوم تصير كدور سود، والبحار تفجر وماؤها يسجّر والعشار تعطل والوحوش تحشر وللقصاص تُقدّم والنفوس تزوج ومع أمثالها تحشر وللحساب تقدم وبالחסرات تملأ وبالذلة ترهق وبالعرق تنصبب والأبصار تشخص وللقهار تخشع، والقلوب واجفة خاوية لا تدري ما يفعل بها، ولم لا والكتب أمامها متطيرة وبأوزارها حملة ودقائق الأعمال فيها محصية، والخلاصة: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، والوحي الإلهي إذ يسطر هذه المظاهر ليدل الناس وخاصة أصحاب الحضارات ومن عاشوا في ظلها على أن القيامة أمر حسي مقصود لذاته، ولا يشفع للناس في ذلك فلسفاتهم وادعاءاتهم بأن البعث روعي أو نفسي أو لون ترقى أو وهم كما وَهَمَ الواهمون أو المحرفون من أهل الكتاب.

لقد أراد الله عز وجل أن يوقن عباده بحقيقة هذا اليوم الفصل الذي لا هزل فيه ولا لعب ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِأَهْزَلٌ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق: ١٣-١٤] قبل أن ينزل بهم فيعدوا له عدة ويجهزوا له زاده، ففصل لهم العدة وبين لهم الزاد وذكر لهم من مشاهد ذلك اليوم ما يجدوا فيه ثمرة كل زاد وعقوبة من حرم الزاد، بل في تفاصيل المشاهد ما يحمل على التزود والطاعة حملا ويزجر عن المخالفة والمعاصي زجرا، ويقوم بين يدي الساعة عدرا أو نذرا.

أمثلة من مشاهد القيامة:

أولا: الفزع الأكبر:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴿١٣﴾﴾ [النازعات: ٣٤-٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْأَهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبْصَرُونَ ﴿١١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بِنَبِيهِ ﴿١٢﴾ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٣﴾ وَفَصَّلَتْهُ أَلَّتِي تُوِيهِ ﴿١٤﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ

جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى ﴿١٦﴾ [المعارج: ٨-١٥].

الكل يريد النجاة بنفسه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿١٥﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿١٦﴾ وَصَلْحَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿١٧﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿١٨﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، وقال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿١٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿١٦﴾ وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٧﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٧].

وأنى للأسباب أن تنفعهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبا: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿١٦﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿١٧﴾ وَجِئَتْ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿١٨﴾ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿١٩﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٠﴾ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَاهُ أَحَدٌ ﴿٢١﴾﴾ [الفجر: ٢١-٢٦].

وينجي الله المؤمنين من هذا الشر المستطير قال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْهُمْ الْبَغْزُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّوهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ويقع في المحظور المجرمون فيتمنوا العود ولا فوت، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ [سبا: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧].

ثانيا: يوم الحساب:

يذكر الرحمن للخلق بعض مواقف الحساب التي تنخلع منها القلوب وتزيغ معها الأبصار والتي منها:

١- تطاير الصحف: والتي دون فيها كل عمل العبد ما نسي منه وما ذكر قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، وهو الحسيب على نفسه قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْرِهٖ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأُ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

ويا ويله من لحظة تطاير الكتب فالسعيد من جاءه كتابه عن يمينه فتلقفه بيمينه ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِأَمْرِهِمْ ﴿٧١﴾ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْتِيَ الْكِتَابَ يَقرءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظَلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٢﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَدِيمِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١-٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَةَ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٠].

ويا لها من لحظة ندمه وغمه حين يأتيه كتابه من وراء ظهره فيأخذه بشاله خاشعا من الذل لا يكاد يرفع بصره فيمن حوله ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلِيَّتَنِي لِمَ أُوتِ كِتَابِيَةَ ﴿٢٥﴾ وَلِمَ أَدْرِمَا حِسَابِيَةَ ﴿٢٦﴾ يَلِيَّتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧٧﴾ فَسَوْفَ مُحَاسَبٌ حِسَابًا يُسِيرًا ﴿٧٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

٢- موقف الدفاع:

سيكل الله تعالى كل إنسان لنفسه ليتولى الدفاع عنها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجَدِلٌ عَن نَّفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظَلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١]، وقال تعالى: ﴿أَقْرَأُ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، وقال تعالى: ﴿* أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقَفُوهُمْ إِيَّاهُمْ مَّسْعُولُونَ﴾ [الصفات: ٢٢-٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴿٢٤﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤]، وقال تعالى:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَانًا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ غَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَأُونَ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠].

فالكل ينظر عن يمينه فلا يجد إلا عمله وينظر عن يساره فلا يجد إلا عمله وينظر بين يديه فلا يجد إلا عمله وينظر من ورائه فلا يجد إلا عمله، قال تعالى: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الزمر: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنْتَقُوا يَوْمًا لَا تُجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣].

٣- الشهود:

«الله» أعظم شاهد لأنه العليم الخبير الذي لا تخفى عليه من أمور عباده خافية، قال تعالى: ﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ غَافِلِينَ ﴾ [يونس: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِمِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الأحقاف: ٨]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿ [النساء: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

الأنبياء عليهم السلام يشهدون على أمهم بالبلاغ وإقامة الحجة، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّا كُنَّا نَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٥]، وقال تعالى في حق المسيح عيسى بن مريم: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩].

الملائكة الذين سجلوا الأعمال على العباد وشهدوا المعاصي، قال تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴿١٨﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٩﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٠﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢١﴾ [ق: ٢١-٢٦].

الأرض، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٢٢﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٢٣﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿ [الانشقاق: ٣-٥].

أمة محمد شاهدة على سائر الأمم قال تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۗ هُوَ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۗ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۗ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴿الحج: ٧٨﴾.

جوارح الإنسان عندما يجادل ويشكك فيما كتب الحفظة ولا يرضى إلا شاهدا من نفسه فعندها يُصم الله تعالى على فيه وتنطق بالحقائق جوارحه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَعْتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠-٢٢].

٣- المداولة والحكم: إنه الحكم العدل والوزن بالقسط كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ثم القضاء والذي قال عنه تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿١٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿١٨﴾ فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ ﴿١٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿٢٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-١١].

٤- بعض مشاهد تعذيب الكفرة من أصحاب الحضارات:

لقد أفرد الحق تبارك وتعالى آيات كثيرة في وصف النار وتفصيل ما يدور فيها ومن ذلك

قوله تعالى: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّغْيِينِ لَشَرَّ مَقَابٍ ﴾ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَعَاخِرٌ مِنْ شَكْلِمَةٍ أَرْوَجُ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرَحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرَحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتُخَذُ نَفْسُهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لِحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ [ص: ٥٥-٦٩]، وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٧٦﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٧﴾ [الزمر: ٧١-٧٢] وغيرها من الآيات.

٥- من مشاهد نعيم أهل الطاعة:

ولقد أفرد الحق تبارك وتعالى آيات كثيرة في وصف الجنة ونعيمها منها قوله تعالى: ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿٧٧﴾ يَبْعَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٧٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٨٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَنِجْهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٨٣﴾ [الزخرف: ٦٧-٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمَ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ ﴿٨٤﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٨٥﴾ [الزمر: ٧٣-٧٤].

وفي القرآن آيات تجمع ذكر النعيم والعذاب معا ليقارن اللبيب بين الصورتين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ

يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَرُ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّرِيبِينَ وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهَمَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿ [محمد: ١٥] ، وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ [الرعد: ٣٥] ، وقال تعالى: ﴿ هَذَا نَحْنُ نَحْنُ الَّذِينَ اتَّقَوْا فِي رَّبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٦﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿١٧﴾ وَهَمَّ مَقْمَعٌ مِّن حديد ﴿١٨﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٠﴾ وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿ [الحج: ١٩-٢٤] .

والمقصود من هذه الأخبار تشويق الناس إلى الجنة ليعملوا بعمل أهلها وتحذيرهم من النار وما يقرب إليها من قول أو عمل وتحذيرهم من الوقوع في ذلك، ولقد كلف الله تعالى عباده الإيمان بذلك تفصيلا لأنه أصل من أصول الدين، وفي ذكره دلالة على صدق الرسول الذي أخبر عن هذا الغيب كله، وفيه دلالة على وقوع البعث لا محالة.

ثانيا: الأدلة والبراهين الحسية:

١- إخراج الحي من الميت:

مشاهدة الناس إخراج الحي من الميت - كما يحدث في الطيور وأمثالها كالزواحف والأسماك والسلاحف - حين يخرج المولود الحي المتحرك من البيضة الميتة التي لا حراك بها، وكذلك الحبوب الجامدة يخرج منها النبات الحي.

يقول سبحانه: ﴿ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَهُيَ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَنُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [الروم: ١٩] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ نُوْفُكُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٥] ، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ

وَمُخْرِجُ أَلْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿ [يونس: ٣١].

والإنسان الحي العاقل المفكر الناطق كان ترابا ميتا لا حراك به، يقول سبحانه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [فاطر: ١١]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ ثُمَّ لِيَتَّكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوْتَوِّى مِنْ قَبْلِ لَوْلَا نُفِخُ فِي الصُّورِ لَكُنْتُمْ عَفْوَافًا ﴾ [غافر: ٦٧].

والأرض الهامدة الميتة ينزل الله عليها الماء فتحيا بإذن الله بالنبات الأخضر النضر يقول عز شأنه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقِنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩]. أي كذلك البعث بعد الموت.

ويقول سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [النحل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ أَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاسِئَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩]. والخلاصة أن الذي أحيا الأرض بالنبات المخلوق من ترابها مرارا وتكرارا هو

وحده القادر على إخراج الإنسان المخلوق من تراها مرة أخرى منها بل إعادة الخلق أهون عليه من ابتدائه.

٢- أطوار الإنسان:

والأطوار التي يمر بها الإنسان خير شاهد على البعث، فمن قدر على خلق النطفة من التراب وخلق العلقة من النطفة وخلق المضغة من العلقة وإكمال الجنين وبقائه في الرحم مدة الحمل ثم إخراجها طفلاً ثم إكمال نموه ومداركه، ثم وفاة البعض وطول عمر البعض حتى يعود كالطفل في ضعف بدنه وفكره، فمن قدر على ذلك كله قدر على البعث بعد الموت؛ إذ إنه طور من الأطوار، يقول سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْتَبَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

ويقول جل في علاه: ﴿أَلَمْ حَسْبُ الْإِنْسَانِ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿١٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّيِّ يُمْنَىٰ ﴿١٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿١٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿١٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ سُحِّيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٨﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿١٩﴾ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

والسلالة: ما يستل أي يستخلص من الأغذية فيتكون منه الحيوان المنوي والبويضة، والسلالة - كذلك - الدودة الصغيرة، وهكذا الحيوان المنوي والبويضة. قال القرطبي: «ما استل من الطين، وقيل: صفوة الماء يعني المنى، والسل استخراج الشيء من الشيء»^(١).

(١) تفسير القرطبي (١٢/١١٠).

والنطفة هي الحيوان المنوي والبويضة عندما يلتحمان ويكونان خلية واحدة، قال القرطبي: «هو المنى سمي نطفة لقلته، وهو القليل من الماء، وقد يقع على الكثير منه، ومنه الحديث: «حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى جوراً» أراد بحر المشرق وبحر المغرب، والنطف: القطر، نطف ينطف وينطف وليلة نطوفة دائمة القطر»^(١).

والقرار المكين هو الرحم، ووصف بذلك لأنه يتوسط بدن المرأة، ولأن بجدار الرحم شعيرات تغطي بدم العادة، وعندما تلتحم النطفة في قناة فالوب وتأخذ طريقها للارتشاف في الرحم يصير هذا الدم لزجا متماسكا كالطين، فتغرس النطفة فيه، ويصبح لها كالمساند والمتكات فتظل في مأمن بإذن الله.

وسميت علقة لعلوقها بجدار الرحم، وقال القرطبي: «هو الدم الجامد والعلق الدم العبيط أي الطري وقيل: الشديد الحمرة»^(٢)، ثم يخلقها الله مضغعة، قطعه لحم بمقدار ما يمضغ؛ ولأنها تشبه تماما قطعة العلك عليها أثر الأضراس، ثم يخلقها الله عظما ويكسوه باللحم. ثم ينشئه الله خلقا آخر، أي يصير سامعا مبصرا متكلمًا، ثم وليدا ثم صبيا، ثم شاب، وهكذا.

وكذلك يبعث فيه روح الإنسان ويأخذ شكله الذي فضله الله به، فقد أثبت العلم الحديث أن أجنة الفقاريات^(٣) من الإنسان والسمك والبقرة والقرود والطيور تتشابه في طورها الأول ثم تتمايز في مرحلتين ببعض الخصائص، ثم يأخذ كل صنف شكله في الطور الثالث.

ويتم هذا الخلق من طور إلى طور في ظلمة دامسة، لأنها ظلمة فوق ظلمة، ظلمة البطن وبداخله ظلمة الرحم وبداخله ظلمة المشيمة؛ ليتم تصويره حسب إرادة الله؛ لقوله سبحانه: ﴿تَخَلَّقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]، فسبحان الخلاق العليم.

(١) تفسير القرطبي (٩/١٢).

(٢) المرجع السابق.

(٣) الفقاريات: كل ما له عمود فقري.

ثم إننا نموت بعد ذلك، وتصريف الأتوار دليل على كمال القدرة، والقادر على كل ذلك قادر على إعادة الخلق والبعث بل إعادة أهون عليه، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]. وفي هذا كله دلالة على قدرة الله الخالق لهذه الأتوار على إعادة الخلق بعد الموت.

٣- تعاقب حياة الإنسان بين النوم واليقظة:

ومن أوضح الدلائل الحسية على البعث هو ما يعترى الإنسان من نوم بالليل ويقظة بالنهار، فما أشبه النائم بالميت من حيث انعدام السمع والبصر والفكر وعدم الحركة، ولذا فإن النائم غير مؤاخذ حتى يستيقظ، وما أشبه الاستيقاظ بالبعث؛ لزوال حالة تعطل بعض الحواس، وحدوث الحركة بعد السكون.

يقول سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقد أكد الرسول ﷺ ذلك بقوله: «والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن على ما تعملون»^(١)، وفي حديث أبي هريرة ؓ قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا أَوَىٰ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلْفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَصَعْتُ جَنبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكَتْ نَفْسِي فَأَرْحَمَهَا، وَإِنْ أَرْسَلَتْهَا فَأَحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ الصَّالِحِينَ»^(٢).

(١) رواه البلاذري عن جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم، كتاب سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الباب السادس، (٢/٣٢٣)، الرحيق المختوم للمباركفوري، باب الدعوة في الأقرين (١/٥٩).

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الدعوات باب التعوذ والقراءة عند النوم رقم (٦٣٢٠) عن أبي هريرة ؓ، مسلم باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع رقم (٢٧١٤)، ورواه أبو داود باب ما يقال عند النوم رقم (٥٠٥٢)، والنسائي والترمذي وغيرهم.

وكان ﷺ يقول بعد الاستيقاظ: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»^(١).

٤- ما جرى لبعض أصحاب الحضارات من الدلائل الحسية على البعث:

من الدلائل الحسية على البعث ما شاهده بعض أصحاب الحضارات من عودة الحياة إلى أناس بعد موتهم وسجله القرآن الكريم، ومن ذلك:

أ- أصحاب الكهف دليل على البعث:

من الدلائل الواضحة التي شاهدها بعض أصحاب الحضارات وجاءتنا بها الأخبار الصادقة ما حصل لأصحاب الكهف، وهم الفتية الذين فروا بدينهم من بطش الطاغية دقيانوس^(١) ولجئوا إلى الكهف فأنامهم الله ثلاثمائة سنة بالتوقيت الشمسي حسب تاريخ أهل الكتاب وثلاثمائة وتسع بالتوقيت القمري حسب تاريخ العرب، قال تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥].

لقد بدأ الله الحديث عن أصحاب الكهف مبينا أن أمرهم من بين آيات الله التي تجل عن الحصر ليس عجيبا إذا قورن بخلق السموات والأرض أو خلق الكواكب وتسييرها قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩].

وقد أجمل الله قصتهم في كتابه حيث قال لنبه: اذكر أيها الرسول حين لجأ أولئك الفتية إلى الكهف فرارا بدينهم وهربا من أن يفتنهم عباد الأصنام، وطلبوا من الله أن يتداركهم برحمته، وأن ييسر لهم سبيل رضاه وطاعته، فأنامهم الله بالكهف نوما عميقا لا ينبههم فيه مختلف الأصوات سنين كثيرة، ثم أيقظهم من رقدتهم ليختبرهم ويختبر من وراءهم في المدة التي مكثوها في رقدتهم، فيتبين للجميع أن المحيط بعلم ذلك هو الله وحده، فيزدادوا يقينا بكمال قدرته وواسع علمه، قال سبحانه: ﴿إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ

(١) رواه البخاري من حديث حذيفة رقم (٦٣١٢) كتاب الدعوات باب ما يقوله إذا نام، ومسلم باب ما يقوله عند النوم وأخذ المضجع رقم (٢٧١١) كتاب الذكر والدعاء والتوبة، وأبي داود رقم (٥٠٥١)

كتاب الأدب، والترمذي رقم (٣٧٤٥) كتاب الدعوات وغيرهم.

(٢) تفسير القرطبي (٣١٢/١٠).

رَحْمَةً وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿ [الكهف: ١٠].

ثم فصل الله قصتهم فيما تلا ذلك من آيات وبسط القول عن نبئهم بالصدق المطابق للواقع والذي لا مرية فيه، فهم مجموعة من الفتيان آمنوا بالله، وثبتهم الله على اليقين، ووقفهم لطاعته، وقوى قلوبهم بالصبر على هجر الأهل والوطن، واستطاعوا أن يقولوا في شجاعة ودون مبالاة حين وقفوا بين يدي الجبار دقيانوس ليعاتبهم على ترك عبادة الأصنام قالوا: إن ربنا هو خالق السماوات والأرض، فلا إله غيره، ولن نعبد سواه، وألا نكون قد بعدنا عن الحق وتجاوزنا الصواب، ثم إنهم تعجبوا من فعل قومهم إذ أشركوا مع الله غيره، وقالوا: هلا أتى هؤلاء بحجة واضحة على صدق ما يدعون، كما أتينا نحن بالحجة الباهرة والدليل القاطع، لقد تجاوزوا الحد في الظلم حين افتروا على الله الكذب ونسبوا إليه الشريك، قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرِذْنَهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ لِنَهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَتُولَاءِ قَوْمَنَا أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿ [الكهف: ١٣-١٥].

ثم إن الملك توعدهم وأمهلهم إن لم يعودوا إلى عبادة آلهة القوم، فقرروا أن يفروا بدينهم، وقالوا: ما دمنا قد اعترلنا قومنا وما يعبدون من دون الله فلنلجأ إلى الكهف حيث نتمكن من إخلاص العبادة لله، وإنا لنرجوه سبحانه أن يسهل لنا أمر الفرار بديننا، وأن يوفقنا لحسن عبادته، ويهيئ لنا سبيل الرشاد، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَعْرَلْتُمْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿ [الكهف: ١٦].

ومن كمال عناية الله بهم أن كان باب الكهف إلى الشمال بحيث تميل الشمس عنهم وقت طلوعها جهة اليمين، وإذا هبطت للغروب تقطعهم وتعزل عنهم إلى جهة الشمال، فشعاعها يقع على جانبي الكهف، فيصلح بحرارته جوه، ولا يقع عليهم فيحرقهم، وهم في متسع من الكهف يصلهم الهواء من كل جانب.

وقد شاء سبحانه أن تبقي أعينهم مفتوحة فكأنهم في يقظة - مع أنهم في نوم عميق - وذلك

لئلا تتلف أعينهم وليرهبوا من يراهم.

كما شاء تعالى - كذلك - أن يقلبوا ذات اليمين وذات الشمال، حتى لا تبلى أجسادهم، وكان كلبهم باسطة ذراعيه بباب الكهف أو فئانه كأنه يجرسهم، وقد طالت أظفارهم وأشعارهم حتى أصبحوا في صورة مرعبة لا يجروء أحد على الاقتراب منهم إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا، قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لِيَهْدِيَ اللَّهُ النَّاسَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الكهف: ١٧]، فمكثوا على هذا الحال ثلاثمائة عام ميلادية أي: ثلاثمائة وتسعا هجرية، ثم أذن الله بانكشاف ليكونوا عبرة وآية للناس إلى قيام الساعة وذلك حين خرج منهم من يشتري لهم طعاما بما معهم من ورق ونقود فاكتشف أمرهم.

ب- من خرجوا من ديارهم حذر الموت فأماهم الله ثم أحياهم:

وقد ذكر الله خبرهم في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

يرى جمهور المفسرين أن هذه الآية الكريمة تحكي قصة جماعة من بني إسرائيل كانوا بقرية يقال لها «داور دان»^(١) أمرهم الله على لسان حزقيال النبي عليه السلام بالجهاد فخافوا الموت بالقتل، فخرجوا من ديارهم فرارا من ذلك، وقيل: خرجوا فرارا من وباء الطاعون، قاله ابن عباس ورجحه القرطبي.

وكلمة أُلُوف: جمع أَلْف، وعلى هذا فقد كانوا أكثر من عشرة آلاف، لأن جمع الكثرة لا يقال لعشرة فما دونها، وقال ابن زيد: إن ﴿ أُلُوفٌ ﴾ جمع أَلْف مثل جالس وجلوس، وعلى هذا فالمعنى: خرجوا مؤتلفين: أي لم تخرجهم فرقة قومهم، ولا فتنة بينهم.

(١) تفسير القرطبي (٣/٢١٨).

ومهما يكن من أمر، فقد خرج هؤلاء القوم من ديارهم فرارا من الموت، وتركوا أوطانهم حرصا على الحياة، فأراد سبحانه أن يبين لهم ولمن خلف من بعدهم أن الإنسان لا يملك لنفسه موتا ولا حياة، وأن الإماتة والإحياء بيده وحده فلا معني لخوف خائف ولا لفرار فار، وقد بين سبحانه ذلك أوضح بيان حيث يقول: ﴿لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

أي لا بد للمرء أن يموت كما كتب عليه الله وفي المكان المحدد له كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَّذِي تَفُزُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنذِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

فأماهم الله، ويستوي في ذلك أن تكون المدة ثمانية أيام أو سبعة أو أقل أو أكثر، والذي يعني كل باحث أنه سبحانه سلبهم حياتهم عقوبة لهم على فرارهم، ثم منحهم إياها.

وقال ابن العربي^(١): أماتهم الله مدة عقوبة لهم ثم أحياهم، وميتة العقوبة بعدها حياة، وميتة الأجل لا حياة بعدها إلى يوم القيامة، ولما أحياهم الله عادوا إلى قومهم يعرف الجميع أنهم كانوا موتي وعاشوا حتى ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم.

وإن الله سبحانه هو صاحب الفضل على الناس فيها وهبهم من حياة ورزق، ولكن أكثرهم لا يشكرونه على ما أعقد عليهم من النعم وأسبغ من الفضل.

نقل ابن كثير^(٢) عن عطاء أنه قال في هذه الآية: إنها مثل في تكوينه تعالى أمة قوية تقهر وتغلب وتسوس غيرها بعد بلوغها غاية الضعف والخمول، فكأن حياتها وموتها تمثيلا لحالتها قبل وبعد، فيكون إشعارا بما ستصير إليه أمة العرب من القوة العظيمة، والمدنية الفخيمة، وتنبئها على أن الوصول إلى ذلك إنما يكون بجهاد الظالمين، واتفاق المتقين على دحر الباغين.

(١) تفسير القرطبي (٣/٢١٨)، ابن العربي: القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي المعافري المالكي إمام من أئمة المالكية، فقيه محدث مفسر أصولي أديب متكلم، ولد بأشبيلية (٤٦٨ - ت ٥٤٣هـ).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٤٠٠).

ولا معنى لأن يحمل الخبر هذا المحمل، فإن بعض ألفاظ الآية لا يحتمله، فما معني «خرجوا من ديارهم وهم ألوف»؟ وأيضا فإن فضل الله على الناس بالحياة أولى وأجدر بالشكر من أن يكون الفضل تكوين أمة قوية قاهرة، وذكر كلمة الناس أعم وأشمل من أن يراد بها العرب وحدهم، وأية غرابة في أن يكون ذلك حقيقة؟ أتراها في موت أناس ثم إحيائهم؟ ألم يحدث ذلك للذين ذهبوا من بني إسرائيل مع موسى عليه السلام للتوبة من ذنب العجل، وطلبوا رؤية الله جهرة، فأماهم الله ثم بعثهم؟

وقد قال الرازي^(١): «إن الآية دالة على أنه تعالى أحياهم بعد أن ماتوا فوجب القطع به، وذلك لأنه في نفسه جائز، والصادق أخبر بوقوعه فوجب القطع بوقوعه، أما الإمكان فلأن تركيب الأجزاء على الشكل المخصوص ممكن، ومتى ثبت ذلك فقد ثبت الإمكان، وأما أن الصادق قد أخبر عنه ففي هذه الآية، ومتى أخبر الصادق عن وقوع ما ثبت في العقل إمكان وقوعه وجب القطع به».

ت - من صعقهم الله ثم أحياهم:

وقد ذكر الله خبرهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْنَاكُم بِالصَّيْقَةِ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

لقد عبد بنو إسرائيل العجل الذي أتاهم به السامري في أثناء غيبة موسى عليه السلام للمناجاة، وأراد عليه السلام -بعد عودته من المناجاة وبعد لومه بني إسرائيل على ما فعلوا وحرقة العجل- أن يصطحب معه مجموعة من خيارهم للمناجاة ليستغفروا الله من ذنب عبادة العجل، فاختار عليه السلام سبعين رجلا منهم، صحبهم معه إلى جانب الطور الأيمن حيث يكلم الله؛ ليقدم ويقدموا توبتهم عسى الله أن يشملهم برحمته ويعفو عما كان منهم من كفر وضلال، يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا

فَتَنَّتْكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿ [الأعراف: ١٥٥].

وناجى موسى ربه وابتهل إليه يسأله الرحمة ويطلب منه العفو وهم قريب منه ينصتون إلى تضرعه، وإذا بهذه الصفة المختارة تقول لموسى: لن نؤمن لك ولن نصدق ما جئتنا به حتى نرى الله عيانا، فصعقهم الله بالصعقة وهم ينظرون، أي يرون أنهم يموتون، فلم يموتوا كلهم دفعة واحدة حتى لا يتأتى منهم إنكار لو صعقوا جملة، فجعل موسى يتضرع لربه أن يعفو عنهم وأن يحييهم فلو شئت سبحانه لأهلكتهم بسبب عبادة العجل وأهلكتني معهم، يقول سبحانه: ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْسُفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿ [الأعراف: ١٥٥].

واستجاب الله دعاءه وبعثهم من موتهم لعلمهم يشكرون ربهم على هذه النعمة ويخلصوا الإيمان لله.

ث - قتل بني إسرائيل وقصة البقرة:

فقد كان في بني إسرائيل رجل ثري ذو مال وافر، ولم يكن له وارث إلا ابن أخيه، فاستبطأ الفتى أجل عمه فطوعت له نفسه أن يقتله وينعم بالمال. فاحتال عليه حتى أتى به قريبا من إحدى القرى وقتله ثم عاد إلى محلته، وفي الصباح طالب أهل هذه القرية بدمه فقالوا: لم نقتله ولا علم لنا بقاتله. والتف حول الفتى أنصاره ليشدوا أزره للمطالبة بدم عمه، وتنازع الفريقان حتى كادوا يقتتلون.

ثم رأى ذوو الحجا منهم أن يحتكموا إلى موسى عليه السلام، كما وصف الله ذلك فقال: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿ [البقرة: ٧٢].

فلما جاء سيدنا موسى وطلبوا منه أن يسأل ربه عن القاتل كان أمر الله تعالى لهم أن يذبحوا بقرة ويضربوا الميت بجزء منها فيحیی بأمر ربه ويخبر عن قتلته. فلما قال لهم سيدنا موسى ذلك قالوا له: أتمزأ بنا يا موسى؟

فقال: معاذ الله أن أكون من أهل الجهل فأهزأ بعباده أو أسخر بأمر الرسالة كما حكي تعالى عنهم فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: 67].

ولو أن بني إسرائيل ذبحوا أي بقرة لأجزأتهم، ولكن كيف يمثلون وهو لاجحة؟! لقد قالوا: نريد يا موسى أن نعرف أصغيرة هذه البقرة أم كبيرة؟ فسأل ربه فقال: لا كبيرة ولا صغيرة، وإنما وسط بين هذا وذاك فامثلوا لأمر الله: ﴿قَالُوا آدُعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا ما تؤمرون﴾ [البقرة: 68].

فقالوا: يا موسى إن البقر المتوسط كثير ونريد أن نعرف لوئها فسل ربك عنها.

فقال لهم: إنه يقول: إنها صفراء شديدة الصفرة، يسر منظرها من يراها قال تعالى: ﴿قَالُوا آدُعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْئُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعُ لَوْئُهَا تَسُرُّ النَّظْرِينَ﴾ [البقرة: 69].

وعاد بنو إسرائيل، لأنهم جبلوا على المماثلة وعدم الامتثال، وعادوا يسألون موسى: ادع لنا ربك يبين لنا: أهى ذلول تحرث وتسقي أم سائمة لتسمن وتذبح فإن البقر تشابه علينا لكثرتة، وإن شاء الله إذا بيتها لنا سنهتدي إليها.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لولا أن بني إسرائيل قالوا: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 70] ما أعطوا أبدا». فقال لهم سيدنا موسى: إن الله يقول: إنها بقرة غير مذللة حرث أو سقي، سليمة من العيوب، وليست بها أي علامة من بياض أو سواد، فقالوا له: الآن وضحت أماننا صفاتها. وقد قال عن ذلك تعالى: ﴿قَالُوا آدُعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 70] قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا آلَيْنَ جِئْتِ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: 70-71].

أخذ بنو إسرائيل يبحثون عن هذه البقرة، وجدّوا في طلبها حتى وجدوها عند فتى كان أشد ما يكون الولد برا بوالديه، وكان أبوه رجلا صالحا، وذات يوم قالت له أمه: يا بني إن والدك في أخريات حياته كان قد ترك في المكان الفلاني عجله وطلب من ربه أن يحفظها لك لتكون لك فاذهب إلى هذا المكان وأحضرها لتبيعها وتتفع بثمانها، فذهب وأحضرها وكانت هي التي وصفها الله لبني إسرائيل، فلم تنطبق هذه الصفات إلا عليها، فاشتراها بنو إسرائيل بأغلى ثمن -ولعل الله بذلك يريد مكافأة الوالد وولده- ثم ذبحوها، كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا أَلْقِنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٠].

قال الضحّاك عن ابن عباس: كادوا ألا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا ألا يذبحوها يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم فلم يكن لهم من غرض إلا التعتت.

ثم ضربوا الميت، ضربه سيدنا موسى أو أحد بأمره بجزء منها، فأعادت إليه الحياة بقدرة الله، وأعلن اسم قاتله وعاد ميتا، فعوقب القاتل بالقتل وحرم من الميراث، وبهذه القدرة يحیی الله الموتى يوم القيامة، فإن من يقدر على إحياء نفس قادر على إحياء الأنفس كلها، كما قال سبحانه: ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٨]، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ فَعَلْنَا أَصْرَبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٣].

ج - من أماته الله مائة عام ثم بعثه، وهو عزير:

كان عزير عليه السلام من صالحى بني إسرائيل، ومن القلة التي كانت تحفظ التوراة وتؤمن بالله، وساء ما كان من فساد قومه حتى سلط الله عليهم بختنصر ملك بابل، فجعل بيت المقدس أثرا بعد عين، واقتادهم أسرى إلى بابل، وكان عزير ممن شرد.

ثم عاد يوما إلى بيت المقدس بعد خرابها فمر عليها راكبا حماره مصطحبا معه طعامه وشرابه من العصير، ونال الكلال منه فنزل ليستريح، وأوى إلى مكان مستور وأسند ظهره إلى الجدار، وأطال النظر فيما حوله وأغرق في التفكير، كيف يعيد الله الحياة إلى هذه القرية وأهلها

بعد أن صارت تلالا من التراب، وسار أهلها عظاما نخرة، وأراد الله سبحانه أن يريه ويرى الناس جميعا في حادثة ملموسة أن قدرة الله فوق مسألة إحياء الموتى، وإعادة الحياة إلى هذه القرية بعد موتها، فأماته الله مائة عام كما أمات حماره وأبقي طعامه وشرابه بجواره وفي هذا يقول تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وفي أثناء موته أطلق «كورش» ملك فارس سراح بني إسرائيل فعادوا إلى بيت المقدس، وساعدهم على عمارتها حتى سارت أحسن من ذي قبل، بعد أن ظلت خرابا ما يقرب من سبعين سنة، وانقضى على موت عزيز مائة عام، ثم أعاد الله إليه الحياة كهيبته يوم موته، وأرسل إليه ملك يسأله: كم أمضيت في رقادك هذا يا عزيز؟ فقال: يوما، ثم التفت فرأى الشمس لم تغرب بعد فقال: أو بعض يوم.

فقال له: بل لبثت مائة عام فانظر إلى قدرة الله كيف أحياك، وهذا طعامك وشرابك لم يتغير شيء منه رغم مرور هذه المدة الطويلة، وهذا حمارك قد نخرت عظامه وتفتت أوصاله، لتبين ما قلت لك من طول المدة، ولتعتبر في نفسك، ولتكون عظة وعبرة لقومك وللناس جميعا حتى يؤمنوا بقدرة الله على البعث، ثم انظر إلى عظام حمارك النخرة المتناثرة، وكيف تجمع وتركب وتكسى باللحم، وتبعث فيها الحياة وتشاهد بعينك، كيف قدرنا على إحياء غيرك كما أحييناك من قبل. فلما رأى عزيز هذا كله قال: أوقن أن الله على كل شيء قدير.

ح- من أحياهم الله على يد عيسى عليه السلام:

كان من معجزات نبي الله عيسى عليه السلام أن يحيي الموتى وأن يخرجهم من قبورهم بعد موتهم بإذن الله، فقد ذكر القرطبي^(١) أنه نادي بنتا من قبرها ودعا الله أن يحييها فخرجت

من القبر تنفض عن كتفها التراب. وجاء في تفسير البغوي^(١): أخرج محيي السنة عن ابن عباس أنه قال: أحيا عليه السلام أربعة أنفس: عاذر وابن العجوز، وابنة العاشر، وسام بن نوح عليه السلام، فأما عازر فكان صديقا له فأرسلت أخته إلى عيسى عليه السلام أن أخاك عازر مات، فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام، فقال لأخته: انطقي بنا إلى قبره فانطلقت معه إلى قبره، فدعا الله تعالى عيسى فقام عازر وودكه^(٢) يقطر فخرج من قبره وبقي زمانا وولد له. وأما ابن العجوز فمُتر به ميتا على عيسى عليه السلام، محمولا على سرير، فدعا الله تعالى عيسى عليه السلام فجلس حيا على سريره ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير ورجع إلى أهله فبقي زمانا وولد له.

وأما سام بن نوح، فإن عيسى عليه السلام جاء إلى قبره فدعا باسم الله تعالى الأعظم فخرج من قبره. وفي بعض الآثار أن إحياءه ساما كان بعد قولهم له -عليه السلام-: إنك تحيي من كان قريب العهد من الموت ولعلمهم لم يموتوا، بل أصابتهم سكتة، فأحيا لنا سام ابن نوح، وكان بينه وبين موته أربعة آلاف سنة فقام فقال للقوم: صدقوه فإنه نبي، ثم مات كما كان.

وقد ورد أنه عليه السلام أحيا ابن ملك، وأحيا خشفا^(٣) وشاة وبقرة.

وعن هذا يقول سبحانه: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وكان هذا حريا أن يجعل جميع بني إسرائيل يؤمنون برسالته ويصدقوه فيما جاء به، ولكن فريقا منهم لكفرهم وعنادهم قالوا: هذا سحر واضح، وفي هذا يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ

(١) تفسير البغوي (١/٣٩)، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٦هـ).

(٢) الودك الصليب أو الصيد الذي يسيل من الميت.

(٣) خشفا: ولد الطيبي.

وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي آمَهَدٍ وَكَهَلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخَلَّقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا
فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ
كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا
سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿ [المائدة: ١١٠].

خ- رؤية إبراهيم عليه السلام إحياء الموتى:

لما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ
قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ
جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ [البقرة: ٢٦٠].

وقال ابن كثير^(١) في تفسيره: ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسبابا، منها: أنه لما قال
للمرود: ﴿ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أحب أن يترقى من علم اليقين إلى
عين اليقين وأن يري ذلك مشاهدة. وأن سؤال إبراهيم عليه السلام يدل على إيمانه العميق
بقدره الله على الإحياء، لأنه يسأل عن الكيفية، كمن قال لمن زاره: كيف وصلت إلي، فهو لا
يشك في وصوله، وإنما يسأل عن الكيفية، وإنما وجه الله إليه هذا السؤال: ﴿ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ ﴾ مع
كامل علمه سبحانه بحاله، ليجيب عليه السلام هذا الجواب: ﴿ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾
أي ليسكن عن الجولان في كفيياتها المحتملة.

وقد أكد المصطفى ﷺ ذلك، حيث قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: أرني كيف
تحيي الموتى»^(٢).

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٥).

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة في التفسير باب «وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى» رقم
(٤٥٣٧)، ورواه مسلم في الفضائل باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام رقم (١٥١) وفي
الإيمان رقم (٣٩٩)، ورواه ابن ماجه في الفتن رقم (٤١٦٢) ورواه احمد في مسنده رقم (٨٥٥١).

أي إننا لم نشك، فإبراهيم أولى بأن لا يشك.

وفي توجيه السؤال لإبراهيم - كذلك - وإجابته دفع توهم أن يكون سؤال إبراهيم للتعجيز، كقولك لمعاندا: أرني كيف تحمل الجمل؟

لقد أخذ إبراهيم - عليه السلام - أربعة من الطير بحسب أمر الله فصرهن إليه أي جمعهن فذبحهن وبتف ريشهن وقطعهن وخلط أجزاءهن بعضها إلى بعض ثم جعل على كل جبل من الجبال التي كانت بحيهاله جزءا ثم دعاهن بإذن الله فاجتمع ريش كل طائر ودمه وأجزاء لحمه، حتى قام كل طائر على حدة وأتينه يمشين سعيا، ليكون ذلك أبلغ في الرؤيا التي طلبها، ولثلا يقول قائل - لو أتته طائرة - لعلها غيرها وتصادف وجودها.

فهذا خير شاهد على حدوث البعث يوم القيامة.

د- إحياء الحوت لنبي الله موسى عليه السلام:

لقد أحيا الله تعالى الحوت بعد أن ملح وأعد لطعام نبي الله موسى عليه السلام وفتاه يوشع بن نون. روى الإمام البغوي بسنده عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نون البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بنى إسرائيل. فقال ابن عباس: كذب عدو الله؛ حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك^(١). قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله في مكمل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثم. فأخذ حوتا فجعله في مكمل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكمل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا وأمسك الله تعالى عن الحوت جرية

(١) رواه البخاري من حديث أبي بن كعب في كتاب العلم باب «وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين» رقم (١٢٢، ٧٤)، وحديث الأنبياء رقم (٤٧٠٠) وغيرهما، ورواه مسلم في الفضائل رقم (٢٣٨٠) وغيره، والترمذي في التفسير رقم (٣٤٤٢)، ورواه احمد في مسنده رقم (٢١٧٠٦)، ومسند الحميدى رقم (٣٩٦).

الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوث فانطلقا بقية يومها وليلتها حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: أتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمر به وقال له فتاه: أرايت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال: فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا. وقال موسى: ذلك ما كنا نبغ. قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجي بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر عليه السلام: وأنى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا. قال: إنك لن تستطيع معي صبرا يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه. فقال موسى: ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا. فقال له الخضر: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يضح إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى: قد حملونا بغير نول عمدت إلى سفيتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا. قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا. قال: وقال رسول الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسيانا والوسطى شرطا والثالثة عمدا. قال: وجاء عصفور فوق وقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى: أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا. قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا؟ قال: وهذه أشد من الأولى قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدي عذرا. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال: كان ماثلا فقال الخضر بيده فأقامه فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا لو شئت لاتخذت عليه أجرا. قال: هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا». فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص علينا من خبرهما». قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ:

(وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا)، وكان يقرأ: (وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين).

وعن سعيد بن جبير في رواية أخرى عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال رسول الله ﷺ: «قام موسى رسول الله فذكر الناس يوما حتى إذا فاضت العيون وورقت القلوب ولى فأدركه رجل فقال: أي رسول الله هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله. قيل: بلى عبدنا الخضر. قال: أي رب وأين؟ قال: بمجمع البحرين. قال: رب اجعل لي علما أعلم بك منه. قال: خذ حوتا ميتا حيث ينفخ فيه الروح». وفي رواية قيل له: «تزود حوتا مالحا فإنه حيث تفقد الحوت، فأخذ حوتا فجعله في مكمل»^(١).

فهذا حوت ميت ومملح. وذكر القرطبي وغيره أنه أكل شقه وأذن الله تعالى بإحيائه فعادت له الحياة مرة ثانية وخرج من المكمل وعاد إلى البحر يشق طريقه فيهن وأمسك الله على الحوت جرية البحر فصار مثل الطاق كأن أثره في حجر، وكان ذلك علامة وجود الخضر عليه السلام، وكان نبي الله موسى نائما لحظة شق الحوت طريقه في البحر، واستحيا فتاه أن يوقظه، فلما استيقظ نسي الغلام أن يذكر له ما رأي من أمر الحوت حتى إذا نأى بهم المكان واحتاج نبي الله موسى للطعام فطلب الحوت فعندها تذكر الفتى فذكر له ما كان من أمره فقال: ذلك ما كنا نبغي، فعادا يتبعان آثارهما حتى وصلا إلى مكان الحوت وعندها التقيا مع الخضر عليه السلام. والخلاصة: أن الذي أحيا الحوت الميت هو الذي يحيي الموتى.

٥- الحوار في الإيمان بالملائكة:

الملائكة هم أكرم خلق الله في عالم الغيب، فمنهم حملة عرشه تعالى كما وصفهم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

ومنهم أمناء وحية كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي

(١) تفسير القرطبي (١١/١١).

الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٩﴾ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ ﴿[التكوير: ١٩-٢١].

ومنهم سفراء أمره وحمله إلى أنبيائه كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى:

﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، وقال تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥-١٦].

ومنهم الحفظة كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠].

ومنهم الكتبة لأقوال العباد وأفعلهم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ﴿١٨﴾ كِرَامًا كَتِيبِينَ ﴿١٩﴾ يَعْمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

ومنهم نصراء أهل الحق ومبتوهم ومشرههم في الحياة وعند المات، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٧﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١]. ومنهم المكلفون بإهانة الكفار وتعذيبهم عند الموت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَاهُمْ﴾ [محمد: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَاهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

ومنهم القبضة المكلفون بقبض روح كل من جاء أجله، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكٌ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي

يَتَوَفَّنَكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿ [الأنعام: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿ [الأنعام: ٦١].

وهم أهل تجرد تام لعبادة الله وطاعته من غير عصيان ولا سأم ولا فتور كما قال تعالى عنهم: ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿ [فصلت: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

ويستوي في ذلك أشدهم وأجلهم ومن دونهم، قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْلًا أَنفُسَكُمُ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿ [النساء: ١٧٢].

والخلاصة أن الملائكة ذوات حقيقية، متشخصة الأعيان للعيان، وصفهم من خلقهم من نور بأمور منها:

أولاً: بكل صفات الذوات المتشخصة المتميزة مثل: الجسمية؛ قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ۚ يَزِيدُ فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ [فاطر: ١]، والصعود ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿ [المعارج: ٤]، والنزول؛ قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى

وَمُتَرَكٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿ [البقرة: ٩٧]، والتجسد في صورة البشر، قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٧]، وغيرها.

ثانياً: بكل صفات الذوات العاقلة المكلفة، مثل: العبادة، والتسبيح، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِمْ وَيُسَبِّحُونَهُمْ وَلَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِمْ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩]، والكلام، وفهم الأمر والخطاب، ورد الجواب، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّن حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٧٠﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ مِّن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٧١﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٢٨-٣٠]، وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ مِّن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٧٧﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [ص: ٧١-٧٣].

وتنفيذ التكاليف المادية والمعنوية ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ سُبْحٰنَهُ ۗ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٧٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ أَرَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

١. الحوار في وصفهم بالإناث:

لقد حاور القرآن الكريم أهل الجاهلية فيما نسبوه إلى الملائكة من أنهم بنات الله، أو أنهم شركاؤه أو أن لهم تصرفاً ذاتياً في تدبير شيء من الكون، ورد القرآن عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَأِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمٰنِ إِنثًا ۗ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ۗ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَأِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٠-١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَأِكَةِ إِنثًا ۗ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾

[الإسراء: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧].

١- الحوار في بيان مدى قوتهم أو ضعفهم:

لقد ظن أهل الجاهلية - وهم أصحاب حضارة - ضعف الملائكة، وقدرتهم على مصارعتهم والفرار من تعذيبهم لهم يوم القيامة، بل والهرب منهم ودخول الجنة بحول المشركين وقوتهم، وبدا ذلك لما نزل قول الله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]، فادعى الحارث بن كلدة أن بوسعه أن يواجهه من الملائكة سبعة عشر وعلى قريش مواجهة الباقي، ودعا أجهلهم عمرو بن هشام قومه لمواجهتهم.

قال الإمام الطبري عند تفسيره لهذه الآية:

(وقوله: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ يقول تعالى ذكره: على سقر تسعة عشر من الخزنة، وذكر أن ذلك لما أنزل على رسول الله ﷺ قال أبو جهل: حدثني به محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١] فلما سمع أبو جهل بذلك قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة^(١) يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم^(٢) أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحى إلى رسول الله ﷺ أن يأتي أبا جهل فيأخذ بيده في بطحاء مكة فيقول له: ﴿أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤-٣٥]، فلما فعل ذلك به رسول الله ﷺ قال أبو جهل: والله لا تفعل أنت وربك شيئًا، فأخزاه الله يوم بدر.

حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ذكر لنا أن أبا جهل حين أنزلت هذه الآية قال: يا معشر قريش، ما يستطيع كل عشرة منكم أن يغلبوا واحدًا من

(١) شبهوا رسول الله ﷺ بابن أبي كبشة، وأبو كبشة رجل من خزاعة ترك عبادة الأوثان، أو هي كنية وهب بن عبد مناف جده من قبل أمه، أو كنية زوج حليلة السعدية مرضعته. القرطبي (١٠ / ٢٣٤).

(٢) أنتم الدهم: أي العدد والشجعان. القرطبي (١٩ / ٨٠).

خزنة النار وأنتم الدهم؟ فصاحبكم يحدثكم أن عليها تسعة عشر.

حدثنا ابن عبد الأعلى قال: ثنا ابن ثور عن معمر عن قتادة قال: قال أبو جهل: يخبركم محمد أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم، ليجتمع كل عشرة على واحد.

حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب: قال ابن زيد في قوله: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال: خزنتها^(١).

قال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: قلت: والصحيح - إن شاء الله - أن هؤلاء التسعة عشر هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: لما نزل ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدهم - أي: العدد والشجعان - فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم! قال السدي: فقال أبو الأشد أسيد بن كلدة الجمحي: لا يهولنكم التسعة عشر أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة ثم تمرن إلى الجنة. يقولها مستهزئاً.

وفي رواية: إن الحارث بن كلدة قال: أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين. وقيل: إن أبا جهل قال: أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم تخرجون من النار؟^(٢).

قال الإمام الشوكاني في كتابه فتح القدير^(٣):

(لما نزل قوله سبحانه: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل: أما لمحمد من الأعوان إلا

(١) تفسير الطبري (٣١٢/١٢).

(٢) تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧٢/١٩).

(٣) تفسير فتح القدير (٣٥٤/٧).

تسعة عشر، يخوفكم محمد بتسعة عشر وأنتم الدهم، أفيعجز كل مائة رجل منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم يخرجون من النار؟ فقال أبو الأشد - وهو رجل من بني جمح -: يا معشر قريش، إذا كان يوم القيامة فأنا أمشي بين أيديكم فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر، ونمضي ندخل الجنة، فأنزل الله قوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ [المدر: ٣١] يعني: ما جعلنا المدبرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة فمن يطيق الملائكة ومن يغلبهم؟! فكيف تتعاطون أيها الكفار مغالبتهم؟!

وقيل: جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المخلوقين من الجن والإنس فلا يأخذهم ما يأخذ المجالس من الرقة والرأفة، وقيل: لأنهم أقوم خلق الله بحقه والغضب له وأشدهم بأساً وأقواهم بطشاً، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً ﴾ [المدر: ٣١] أي: ضلالة «للذين» استقلوا عددهم ومحنة لهم، والمعنى: ما جعلنا عددهم هذا العدد المذكور في القرآن إلا ضلالة ومحنة لهم حتى قالوا ما قالوا ليتضاعف عذابهم ويكثر غضب الله عليهم.

وقيل: معنى ﴿ إِلَّا فِتْنَةً ﴾: إلا عذاباً كما في قوله: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات: ١٣] أي: يعذبون، واللام في قوله: ﴿ لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [المدر: ٣١] متعلق بجعلنا، والمراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى بنبوته محمد ﷺ لموافقة ما في القرآن لما في كتبهم، ﴿ وَيَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا ﴾ وقيل: المراد الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وقيل: أراد الذين آمنوا المؤمنين من أمة محمد ﷺ، والمعنى: ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم، وجملة ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ مقررة لما تقدم من الاستيقان وازدياد الإيثار، والمعنى: نفي الارتياب عنهم في الدين، أو في أن عدة خزنة جهنم تسعة عشر، ولا ارتياب في الحقيقة من المؤمنين ولكنه من باب التعريض لغيرهم ممن في قلبه شك ﴿ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ [المدر: ٣١]، المراد بالذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، والسورة وإن كانت مكية ولم يكن إذ ذاك نفاق فهو إخبار بما سيكون في المدينة، أو المراد بالمرض مجرد حصول الشك والريب وهو كائن في الكفار.

قال الحسين بن الفضل: السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق، فالمرض في هذه الآية الخلاف،

والمراد بقوله: ﴿هُمُ﴾ كفار العرب من أهل مكة وغيرهم، ومعنى ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا﴾ أي شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل. قال الليث: المثل الحديث ومنه قوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] أي. حديثها الخبر عنها ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: مثل ذلك الإضلال المتقدم ذكره وهو قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾، ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده والكاف نعت مصدر محذوف، ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، والمعنى: مثل ذلك الإضلال للكافرين والهداية للمؤمنين يضل الله من يشاء إضلاله ويهدي من يشاء هدايته. وقيل: المعنى: كذلك يضل الله عن الجنة من يشاء ويهدي إليها من يشاء، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: يعلم عدد خلقه ومقدار جموعه من الملائكة وغيرهم إلا هو وحده، لا يقدر على علم ذلك أحد، وقال عطاء: يعني من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدتهم إلا الله، والمعنى: أن خزنة النار وإن كانوا تسعة عشر فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر سقر فقال: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ﴾ أي: وما سقر وما ذكر من عدد خزنتها إلا تذكرة وموعظة للعالم، وقيل: ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: الدلائل والحجج والقرآن إلا تذكرة للبشر، وقال الزجاج: نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة وهو بعيد، وقيل: ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: عدة خزنة جهنم إلا تذكرة للبشر ليعلموا كمال قدرة الله، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار. وقيل: الضمير في ﴿وَمَا هِيَ﴾ يرجع إلى الجنود^(١).

وقد رد الله تعالى عليهم افتراءهم وزعمهم ووصف ملائكته بالقوة في قوله تعالى: ﴿مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

(قال عمرو بن دينار: إن واحداً منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر.

قال ابن عباس وقتادة والضحاك: لما نزلت هذه الآية قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة يخبر أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم -أي: الشجعان-

أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من خزنة جهنم؟ قال أبو الأشد أسيد بن كلدة بن خلف الجمحي: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر؛ عشرة على ظهري وسبعة على بطني، فاكفوني أنتم اثنين.

وروي أنه قال: أنا أمشي بين أيديكم على الصراط فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر في النار، ونمضي فندخل الجنة^(١).

٢- في جبريل وعداوة اليهود:

قال أبو جعفر: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل؛ إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك؛ فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوته، ذكر من قال ذلك:

حدثنا أبو كريب قال: حدثنا يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن ابن عباس أنه قال: حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، فقال رسول الله ﷺ: «سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعفرتموه لتتابعني على الإسلام» فقالوا: ذلك لك، فقال رسول الله ﷺ: «سلوني عما شئتم» فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا هذا النبي الأمي في النوم ومن وليه من الملائكة؟ فقال رسول الله ﷺ: «عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعني» فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، فقال: «نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرم من أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل - قال: أبو جعفر فيما أروي: وأحب الشراب إليه ألبانها؟-» فقالوا: اللهم نعم. فقال

(١) تفسير البغوي (١/ ٢٧٠).

رسول الله ﷺ: «أشهد الله عليكم وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ وأن ماء المرأة أصفر رقيق فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟ قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد» قال: «وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأُمِّي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟» قالوا: اللهم نعم، قال: «اللهم اشهد». قالوا: أنت الآن تحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نتابعك أو نفارقك. قال: «فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه». قالوا: فعندها نفارقك لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك. قال: «فما يمنعكم أن تصدقوه؟» قالوا: إنه عدونا، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فعندها باءوا بغضب على غضب.

حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال: حدثني حجاج عن ابن جريج قال: حدثني القاسم بن أبي بزة: (أن يهوداً سألوا النبي ﷺ: من صاحبه الذي ينزل عليه بالوحي؟ فقال: «جبريل» قالوا: فإنه لنا عدو ولا يأتي إلا بالحرب والشدة والقتال) فنزل: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الآية. قال ابن جريج: وقال مجاهد: قالت يهود: يا محمد، ما ينزل جبريل إلا بشدة وحرب، وقالوا: إنه لنا عدو، فنزل: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الآية.

وقال آخرون: بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بين عمر بن الخطاب ؓ وبينهم في أمر النبي ﷺ، ذكر من قال ذلك:

حدثني محمد بن المثني قال: حدثنا ربعي بن علي عن داود بن أبي هند عن الشعبي قال: نزل عمر الروحاء فرأى رجالاً يبتدون أحجاراً يصلون إليها، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى هاهنا، فكره ذلك وقال: أيها رسول الله ﷺ أدركته الصلاة بواد فصلى ثم ارتحل فتركه، ثم أنشأ يحدثهم فقال: كنت أشهد اليهود يوم مدراسهم^(١) فأعجب

(١) مدراسهم: أي اجتماعهم، فيقال: يوم مدراسهم للزمان، ويقال: بيت مدراسهم للمكان، والفرقان هو القرآن الكريم.

من التوراة كيف تصدق الفرقان ومن الفرقان كيف يصدق التوراة، فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا: يا بن الخطاب، ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك، قلت: ولم ذلك؟ قالوا: إنك تغشانا وتأتينا، قال: قلت: إني آتيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة ومن التوراة كيف تصدق الفرقان، قال: وم رسول الله ﷺ فقالوا: يا بن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به، قال: فقلت لهم عند ذلك: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو وما استرعاكم من حقه واستودعكم من كتابه أتعلمون أنه رسول الله؟ قال: فسكتوا، قال: فقال عالمهم وكبيرهم: إنه قد عظم عليكم فأجيئوه، قالوا: أنت عالما وسيدنا فأجبه أنت، قال: أما إذ نشدتنا به فإننا نعلم أنه رسول الله، قال: قلت: ويحكم إذا هلكتم قالوا: إنا لم نهلك، قال: قلت: كيف ذاك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ﷺ ثم لا تتبعونه ولا تصدقونه؟ قالوا: إن لنا عدوًا من الملائكة وسلما من الملائكة، وإنه قرن به عدونا من الملائكة، قال: قلت: ومن عدوكم؟ ومن سلمكم؟ قالوا: عدونا جبريل وسلمنا ميكائيل، قال: قلت: وفيم عاديتم جبريل؟ وفيم سالمتم ميكائيل؟ قالوا: إن جبريل ملك الفضاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وأن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا، قال: قلت: وما منزلتهما من ربهما؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، قال: قلت: فوالله الذي لا إله إلا هو إنها والذي بينها لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمها، ما ينبغي لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل ولا لميكائيل أن يسالم عدو جبريل، قال: ثم قمت فاتبعت النبي فلحقته وهو خارج من مخرفة لبني فلان، فقال لي: «يا بن الخطاب، ألا أقرئك آيات نزلن؟» فقرأ علي: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حتى قرأ الآيات، قال: قلت: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك الخبر، فأسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر.

قال أبو جعفر: وأما تأويل الآية؛ أعني قوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهو: أن الله يقول لنبيه: قل يا محمد لمعاشر اليهود من بني إسرائيل الذين زعموا أن جبريل لهم عدو من أجل أنه صاحب سطوات وعذاب وعقوبات لا صاحب وحي وتنزيل ورحمة، فأبوا اتباعك وجحدوا نبوتك وأنكروا ما جئتهم به من آياتي وبينات حكمي من أجل أن جبريل وليك وصاحب وحيي إليك، وزعموا أنه عدو لهم: من

يكن من الناس لجبريل عدوًا ومنكرًا أن يكون صاحب وحي الله إلى أنبيائه وصاحب رحمته فإني له ولي وخليل ومقر بأنه صاحب وحي إلى أنبيائه ورسله، وأنه هو الذي ينزل وحي الله على قلبي من عند ربي بإذن ربي له بذلك يربط به على قلبي ويشد فؤادي، كما:

حدثنا أبو كريب قال: حدثنا عثمان بن سعيد قال: حدثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قال: وذلك أن اليهود قالت حين سألت محمدًا ﷺ عن أشياء كثيرة فأخبرهم بها على ما هي عندهم، إلا جبريل فإن جبريل كان عند اليهود صاحب عذاب وسطوة ولم يكن عندهم صاحب وحي؛ يعني: تنزيل من الله على رسله، ولا صاحب رحمة، فأخبرهم رسول الله ﷺ فيما سألوه عنه: أن جبريل صاحب وحي الله وصاحب نعمته وصاحب رحمته، فقالوا: ليس بصاحب وحي ولا رحمة، هو لنا عدو فأنزل الله عز وجل إكذابًا لهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ يقول فإن جبريل نزله، يقول: نزل القرآن بأمر الله يشد به فؤادك ويربط به على قلبك؛ يعني: بوحينا الذي نزل به جبريل عليك من عند الله، وكذلك يفعل بالمرسلين والأنبياء من قبلك^(١).

فالآية دلت على شرف جبريل وعلو منزلته عند ربه، وأنه الأمين على وحي ربه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩-٢١]، والمنفذ لأوامره يستحق المحبة لا العداوة، بل إن الله تعالى عدو من عاداه، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

٣- الحوار في الإيمان بالقدر:

يكرر القرآن الكريم ذكر القدر كثيرًا؛ تنبيهًا على أهميته وخطره العظيم في قبول الإيمان أو رده، وتكرره اليومي في وقائع الحياة، والتي تحتاج إلى صبر جميل لا يتم للعبد إلا من خلال إيمانه بالقدر ورضاه بقضاء الله له.

(١) تفسير الطبري (١/٤٧٤-٤٧٦).

والإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان الستة التي وردت في حديث جبريل.

تعريف القدر: هو قضاء الله الأزلي في الأشياء، وإيجادها على وفق هذا القضاء عند حلول أوقاتها، مع ربط الأسباب بالمسببات، والنتائج بالمقدمات في سنن إلهية خاضعة خضوعاً مطلقاً لمشيئة الله تعالى وتقديره؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

(فقدر: إشارة إلى ما سبق به القضاء والكتابة في اللوح المحفوظ، والمشار إليه بقول النبي ﷺ: «فرغ ربكم من الخلق والأجل والرزق»^(١))، والمقدور: إشارة إلى ما يحدث عنه حالاً فحالاً مما قدر وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا نُزِّلَهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]^(٢).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] (فياذن الله تفعل الأسباب فعلها وتنشئ آثارها وتحقق نتائجها... وهذه قاعدة كلية في التصور لا بد من وضوحها في الضمير المؤمن تماماً، وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في هذا المقام، أنك إذا عرضت يدك للنار فإنها تحترق، ولكن هذا الاحتراق لا يكون إلا بإذن الله، فالله هو الذي أودع النار خاصية الحرق وأودع يدك خاصية الاحتراق بها، وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريد بها؛ كما وقع لإبراهيم عليه السلام... فكل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله، فهو يعمل بهذا الإذن، ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين يشاء...)^(٣).

القدر نوعان:

أولاً: قدر تكويني أو تصريفي.

ثانياً: قدر تكليفي أو تشريعي.

(١) رواه أحمد في مسند أبي الدرداء رضي الله عنه، والبخاري، والطبراني بقريب من هذا اللفظ، وهو حديث صحيح.

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني، مادة (قدر) (١/ ١١٦٤).

(٣) تفسير في ظلال القرآن (١/ ٩٦).

أولاً: القدر التكويني، التصريفي لا خيار لأحد فيه، والخلائق جميعاً لا تملك معه إلا أن تصدع لأمر ربها وخالقها؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [غافر: ٦٨].

ثانياً: القدر التشريع، التكليفي ففيه الخيار، وقد عرض على السموات والأرض والجبال فأبين استصغاراً، وحمله الإنسان اختياراً حين خير، ليتم بذلك ما اقتضته حكمة الله تعالى من إيجاد جنس من الخلائق يكلف اختياراً، ويترتب على سلوكه نوعية جزائه^(١).

وقد بين الله تعالى مسألة المشيئة بقوله: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أي: لا يقدر أحد أن يهدي نفسه ولا يدخل في الإيوان ولا يجبر لنفسه نفعاً ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ويقبض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ ﴾ أي: الطاعة والاستقامة واتخاذ السبيل إلى الله، ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فأخبر أن الأمر إليه سبحانه ليس إليهم، وأنه لا تنفذ مشيئة أحد ولا تتقدم إلا أن تتقدم مشيئته، وقرأ ابن كثير وأبو عمر ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ ﴾ بالياء على معنى الخبر عنهم والباقون بالتاء على معنى المخاطبة لله سبحانه، وقيل: إن الآية الأولى منسوجة بالثانية، والأشبه أنه ليس بنسخ بل هو تبين أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته. قال الفراء: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ جواب لقوله: ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم فقال: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ ﴾ ذلك السبيل ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ لكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بأعمالكم ﴿ حَكِيمًا ﴾

(١) المنهاج القرآني في التشريع (٣٤٨، ٣٤٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٥٨٨/٤).

في أمره ونهيه لكم وقد مضى في غير موضع^(١).

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أي: وما تشاءون أن تتخذوا إلى الله سبيلاً إلا أن يشاء الله، فالأمر إليه سبحانه ليس إليهم، والخير والشر بيده، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فمشيئة العبد مجردة لا تأتي بخير ولا تدفع شرّاً، وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة ويؤجر على قصد الخير كما في حديث: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(٢). قال الزجاج: أي لستم تشاءون إلا بمشيئة الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ في أمره ونهيه: أي بليغ العلم والحكمة^(٣). ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ تحقيقاً للحق ببيان أن مجرد مشيئتهم غير كافية في اتخاذ السبيل كما هو المفهوم من ظاهر الشرطية؛ أي وما تشاءون اتخاذ السبيل ولا تقدرون على تحصيله في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى تحصيله لكم؛ إذ لا دخل لمشيئة العبد إلا في الكسب، وإنما التأثير والخلق لمشية الله عز وجل وقرئ: (يشاءون) بالياء، وقرئ: (إلا ما يشاء الله).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ بيان لكون مشيئته تعالى مبنية على أساس العلم والحكمة، والمعنى: أنه تعالى مبالغ في العلم والحكمة، فيعلم ما يستأهله كل أحد فلا يشاء لهم إلا ما يستدعيه علمه وتقتضيه حكمته^(٤).

والظاهر من النص ومن كلام أهل العلم عنه أن قدر الله كله تكويني وتكليفي مبني على غاية الحكمة والعلم المحيط؛ كما قال تعالى: ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴾ [المرسلات: ٢٣]، وذلك في القدر التكويني، ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، وذلك في القدر التكليفي.

(١) تفسير القرطبي (١٣٥/١٩).

(٢) رواه البخاري، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ رقم (١)، وأبو داود، باب: فيما عني به من الطلاق والنيات، رقم (٢٢٠٣)، والبيهقي وغيره.

(٣) تفسير فتح القدير (٤٩٨/٥).

(٤) تفسير أبو السعود (٧٦/٩).

فعلم البشر في الأشياء محدود لا ينفذ وراءها، وعلم الله بلا حدود، ومن ثم جاء أمر الله لنا بالتسليم المطلق لحكم الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

- لقدر الله أسرار يستحيل على البشر الإحاطة التامة بها لذا يلزمهم اليقين بأنها من خصائص العلم الإلهي، يطلع تعالى عليها من شاء من عباده بالقدر الذي يشاء، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿ عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۚ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۚ لِيَعْلَمَ أَن قَدَّ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

ولله در الخضر عليه السلام في قصته مع نبي الله موسى عليه السلام حين كشف الله تعالى لنا بها جانباً من أسرار قدره خفي على نبي من أولي العزم من الرسل، فكيف لا يخفى على من هم دونه، وفي الحديث الذي في صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة ولو صبر لرأى العجب»^(١). قال القرطبي: وكان إذا ذكر أحداً من الأنبياء بدأ بنفسه: «رحمة الله علينا وعلى أخي كذا»، وفي البخاري عن النبي ﷺ قال: «يرحم الله موسى لوددنا أنه صبر حتى يقص علينا من أمرهما». الذمامة -بالذال المعجمة المفتوحة- وهو بمعنى المذمة -بفتح الذال وكسرهما- وهي: الرقة والعار من تلك الحرمة؛ يقال: أخذتني منك مذمة وذمامة، وكأنه استحيا من تكرار مخالفته وما صدر عنه من تغليظ الإنكار^(٢).

- نؤمن بالقدر ولا نحتج به:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن القدر نؤمن به ولا نحتج به، فمن احتج بالقدر

(١) رواه مسلم، باب: من فضائل الخضر عليه السلام، رقم (٢٣٨٠)، والنسائي (٦/٣٨٨)، وابن حبان وغيره.

(٢) تفسير القرطبي (١١/٢١).

فحجته داحضة، ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول، ولو كان الاحتجاج بالقدر مقبولاً لقبول من إبليس وغيره من العصاة، ولو كان القدر حجة للعباد لم يعذب الله أحداً من الخلق لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو كان القدر حجة لم يقطع سارق، ولا قتل قاتل، ولا أقيم حد على ذي جريمة، ولا جاهد في سبيل الله، ولا أمر بمعروف، ولا نهى عن منكر^(١).

الخلاصة: لقد فهم الصحابة عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر أحسن الفهم، ففهموا أن الأجل والرزق، والحياة والمات، والنفع والضرر، وكل شيء بيد الله تعالى، وأن المسلم مكلف بالسعي والعمل والأخذ بالأسباب على أحسن الوجوه، ولا يخاف غير ربه ولا يذل لسواه، ولا يعتز إلا به، ولا يأتي بمحرم، بل يتقن العمل ويحلم في الطلب ويحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه.

هذه العقيدة كانت لديهم أعظم قوة دافعة أو طاقة محرّكة، لم تخلد بهم إلى الأرض، وإنما حلقت بهم في آفاق الفضائل، وجلائل الأعمال، وحققوا بها خوارق التاريخ، وعظائم الأمور، فصبروا على الشدائد، وقارعوا الخطوب، واقتحموا لجة الموت، وضربوا في مناكب الأرض، واجتازوا الحزن والسهل في ريبيل الله، وبلغوا الغاية في قول الحق، والنصح في الدين، والترفع عن الحرام، فلم يسيئوا فهم القدر فيركنوا عليه ويتواكلوا كما فعل ذلك بعض من بعدهم وخاصة في أجيالنا المتأخرة، فتركنا بلاد الإسلام نهبة لكل طامع فلا يجد فيها من يحول بينه وبين عدوانه وإفساده فيها.

إن أصحاب الحضارات قد نازعوا في القدر وجادلوا فيه وجعلوا لأنفسهم سنناً فيه؛ وجاء القرآن الكريم بالرد عليهم، وعلى سبيل المثال لا الحصر: لقد تذرّع المشركون بالقدر واحتجوا لضلالهم بمشيئة الارتضاء أو الاقتضاء، كما في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

(١) رسالة القضاء والقدر لابن تيمية (ص ٨).

عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿ [النحل: ٣٥].

وهذا يدلنا على أنهم تعلقوا بالمشيئة الإلهية الصحيحة على وجه باطل خبيث؛ وبيان ذلك:
أولاً: تعلقهم بالمشيئة الإلهية الصحيحة:

دل عليها القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٣]؛ أي: أمة واحدة متفقة على الحق^(١) أو على الإسلام^(٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى: ٨]، قال ابن كثير: «أي إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم فهدى من يشاء إلى الحق وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة»^(٣).

ثانياً: كون الاحتجاج بالمشيئة باطل خبيث:

١- هم لم يريدوا الاحتجاج بجبر القدر لهم - شرکاً وتشريعاً - لأنهم لو قصدوا ذلك وقالوه لكان مكابرة محضة، فهم يلمسون يقيناً في أنفسهم جانباً اختيارياً.

٢- هم رتبوا على الأصل الصحيح أمراً في غاية الفساد، فأرادوا الاحتجاج - لشرعية باطلهم - بمشيئة الارتضاء؛ بمعنى أن الله تعالى علم ما هم عليه ولو كرهه لغيره قسراً عنهم، ولما لم يغيره دل على رضاه عنه، قال البيضاوي: «أرادوا بذلك أنهم على الحق المشروع المرضي

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٧٤).

(٢) ذكره البغوي (١/ ٤٠)، والبيضاوي (١/ ٤١٨)، والألوسي (١٤/ ٢٢٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٣٦).

عند الله، لا الاعتذار عن ارتكاب هذه القبائح بإرادة الله إياها منهم^(١).

وأكد ذلك الإمام البغوي فقال: «وقالوا: إن الله تعالى قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله، فلو لا أنه رضي بما نحن عليه وأراده منا وأمرنا به لحال بيننا وبين ذلك، فقال الله تعالى تكذيباً لهم: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم الخالية ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ عذابنا»^(٢).

ثالثاً: الرد على دعوى الاحتجاج بالمشيئة:

قال الخازن في تفسيره: «والدليل على أن التكذيب في قولهم: إن الله أمرنا بهذا ورضيه منا، لا في قولهم: لو شاء الله ما أشركنا قوله: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨] بالتشديد، ولو كان خبراً من الله عن كذبهم في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ لقال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ﴾ بالتخفيف، فكان ينسبهم إلى الكذب لا إلى التكذيب. وقال الحسن بن الفضل: لو قالوا هذه المقالة تعظيماً لله، وإجلالاً له، ومعرفة بحقه وبما يقولون لما عابهم بذلك، ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيباً وجدلاً...»^(٣).

لقد صرح القرآن الكريم بأنهم نسبوا جرائمهم لأمر الله وتشريعه، فقال عنهم تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِيشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا﴾، ورد تعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨-٢٩].

ورد أيضاً بقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وهناك أمثلة أخرى لا مجال لبحثها هنا حتى لا يطول بنا البحث.

(١) تفسير البيضاوي (١/٤٦٢).

(٢) تفسير البغوي (١/٢٠١).

(٣) تفسير الخازن (٢/١٩٧).

المطلب الثاني معرفة الإنسان لنفسه وكيفية التعامل معها

لقد أفاض القرآن الكريم في الحديث عن الإنسان ومهمته في الإطار العام للكون ومسئوليته في وظيفة العبودية لله رب العالمين.

(إن حديث القرآن ليلعب غاية الشموخ والدقة والتفصيل حين يحدثنا عن مادة الخلق الإنساني، وأطوارها، ونوعية خلقها، وبدء حياة الإنسان، ومكانها، وما أحيط به من تكريم وإجلال، ومسكنه الأول، ثم يحدثنا عن الملابس التي جاءت به إلى هذا الكوكب، وما زود به لهذه الحياة الجديدة من حيث هو خليفة في الأرض، يقيم فيها الحق والعدل، ويجاهد نفسه حتى يقطع رحلة العمر - على هدى من الله ونور - ليعود من جديد إلى دار السلام التي شهدت فجر حياته، ويستأنف فيها حياة الكرامة والخلود، إن كان قد أحسن مهمته وسعيه في هذا الوجود، وحق القرآن أن يصف هذا الحديث بوصفه الجامع^(١)).

والإنسان جزء من هذا الكون الكبير الذي جعل الله فيه لكل مخلوق فلك يسبح فيه، فلا يبغى مخلوق على فلك غيره ولا يعتدي عليه، قال الله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وللإنسان فلك رسمه الله تعالى له، وحدد له معالمة وهداه إليه، وهياً لولوجه والسير فيه، ووهبه روحاً وجسداً بكل ما فيها من ملكات تعينه على أداء مهمته كأكمل ما يكون الأداء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، بل إن الإنسان مطالب أن يتعامل مع روحه وجسده، وهذا يتطلب منه أن يعرف قواعد التعامل معها، بل ويعرف طبيعة كل منهما، والواقع التاريخي والمشاهد للحضارات يشهد بمدى علم الإنسان بهادته وروحه، ومدى جهله.

(١) المنهاج القرآني في التشريع للأستاذ الدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد (ص ٦٧).

أولاً: علم الإنسان ببادته وجسده:

بالنظر إلى الواقع نجد أن علم الإنسان بخلق مادة جسده وطبيعة هذه المادة لا يزال في مهده يجب، فمنذ خلق الله أبانا آدم إلى يومنا هذا في القرن الحادي والعشرين وما زلنا نستكشف في هذا الجسد، بل كلما أذن الله لنا نكتشف الجديد الذي لم يسبق للبشرية معرفته، دلنا اكتشافنا لهذا الجديد على جهل البشرية بذلك على مدى تاريخها السابق لهذا الاكتشاف، والله در الإمام الشافعي حين قال:

كلما أدبني الدهر أراني نقص عقلي وإذا ما ازددت علماً زادني علماً بجهلي (١)

وقد ذكر بعض علماء الطب أن ما اكتشف على سبيل المثال لا الحصر من علوم مخ الإنسان لا يتجاوز ٣,٠٪ «ثلاثة من عشرة في المائة».

العلم بالخلق:

لا أحد أعلم بخلق الإنسان من ربه الذي خلقه، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، بل ما شهد الإنسان بدء خلقه، قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]، ولا شهد إتمام خلقه، قال تعالى: ﴿تَخَلَّقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦]، ولا شهد أطوار خلقه كما في الآية السابقة والتي جاء تفصيلها في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴿٢١﴾ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وهذا المعنى صريح في أن الله تعالى له أصل الخلق والإيجاد، كما أن له نقل الأطوار في مراتب الأحوال، ولقد حاور الله تعالى الإنسان أيًا كانت حضارته أو زمانه في مسألة الخلق في

(١) دواوين الشعر العربي على مر العصور، رقم القصيدة (١٤٢٨٩)، (٩/٢٥٠)، الوافي في الوفيات (١/٢٢٥).

مواضع عدة قي القرآن الكريم؛ كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (٣٧) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٣٨) ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧-٥٩]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصفات: ١١]، وقوله تعالى عن الأطوار: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، قوله تعالى عن صاحب الجنين وصاحبه: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ﴾ [الكهف: ٣٧].

ثانيًا: علم الإنسان بالروح:

فهذا باب لا طاقة لابن آدم فيه على ادعاء العلم بهذه الروح غير إقراره بوجود هذه اللطيفة الربانية فيه وأنها سر حياته، فالمرء بالروح لا بالجسم إنسان، وهو على يقين أنها إذا خرجت منه ساعة احتضاره صار جثة هامدة لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، وقد بين الله تعالى حقيقة هذا الأمر في قوله تعالى: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، بل وحاوَر أصحاب الحضارات وغيرهم بشأنها كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٨٧) ﴿وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ﴾ (٨٨) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٨٩) ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (٩٠) ﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧]، أي: فلولا إن كنتم غير راجعين إلى رب العالمين ترجعون الروح إلى المحتضر ثانية؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ (٩١) ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ (٩٢) ﴿وظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ (٩٣) ﴿وَأَلْتَفَتِ الْإِنْسَانُ بِالْإِنْسَانِ﴾ (٩٤) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠]، وغيرها.

الخلاصة: إذا كان الإنسان لا يقوى أن يدعي علمًا بالروح وعلمه بالجسد محدود، فكيف يمكنه التعامل مع ما يجهل بدون دليل من عند صانعه والعليم بأسراره، لذا بين الله تعالى أنه خالق الإنسان وحده ومالكة؛ وفي هذا يقول تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا سَخِرُونَ ﴿ [يونس: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ [النور: ٦٤].

وأنة تعالى وحده صاحب الأمر في جميع شئونه، والأمر هنا بمعنى التكليف والذي هو مصدر أمرته وجمعه أوامر، وهو لفظ عام يشمل الاعتقاد والأقوال والأفعال جميعاً، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الأعراف: ٥٤]، ﴿ قُلْ إِنْ أَمَرَ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴿ [آل عمران: ١٥٤]، ﴿ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴿ [الرعد: ٣١]، وعلاقة الأمر بالخلق علاقة لزوم وترتب، وترتب الأمر على الخلق حقيقة شرعية لما سبق من نصوص تفيد تفردة تعالى بالخلق والأمر -تصريفاً كان أم تشريعاً- وهذا ملحوظ من «اللام» في الآيات في قوله تعالى: ﴿ لَهُدٌ ﴿ ﴿ لِلَّهِ ﴿ وهي تفيد الاختصاص والملك.

(والمبدأ هنا عام شامل في الخلق والأمر جميعاً، لم يقيد بشيء ما، فهو أعم من خلق الأشياء المذكورة، وأعم من الأمر الذي صدر لهذه الكائنات المذكورة بأن تمضي على نمط معين وحساب محدد، ولذلك أطلق عن الإضافة والتقييد.

فتقرر من هذا أن الله تعالى هو الخالق بإطلاق، والمالك لما خلق بإطلاق، والذي يختص بأمرها، فهو الأمر لها على الإطلاق، وما الإنسان في ذلك إلا كهذه الأجرام السابحة المسخرة، يخضع لسنن الله وشريعته، لكنه تفرد عنها بالاختيار الذي وهبه الله له، حسبما اقتضته حكمته تعالى في خلق الأشياء والأحياء، ولذلك استفاض حديث القرآن الكريم في تقرير هذا الأمر وشرحه وتفصيله، حتى يقطع على أهل الضلالة معاذيرهم، ولئلا تكون للناس على الله حجة بعد الرسل في هذه القضية الخطيرة وما يترتب عليها^(١).

لقد حاور القرآن الكريم أصحاب الحضارات في مسألة الخلق والأمر وأشبعهم أدلة بما يدفع به كل شبهة، كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿ ٥٥ ﴾ أَمْ

(١) المنهاج القرآني في التشريع (ص ٢٣)، للأستاذ الدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد، طبعة دار الطباعة والنشر الإسلامية.

خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَبُونَ ﴿٦٧﴾ أَمْ هُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ﴿[الطور: ٣٥-٣٨]﴾، وقال تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ خُلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٩]، ﴿ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤]، ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٩]، ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧]، ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَافِعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يُفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٤]، ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥]، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

الإنسان خلق من خلق الله تعالى، تجري عليه أوامر الله تعالى في نفسه وقلبه وسمعه وبصره ووسائله، بل لا استقامة لشيء منها بدون أوامر الله تعالى.

لقد جعل تعالى لكل جارحة فينا أمرًا وتشريعًا، فاستقامة العين بفعل أوامره لها وترك نواهيها، واستقامة الأذن بمثل هذا وكذلك سائر الجوارح، فلن يجد الإنسان أعدل ولا أقسط من خالقه في التشريع له، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ۗ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ

ضَعِيفًا ﴿ [النساء: ٢٦-٢٨]، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ [المائدة: ٦]، ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

بل هذا حق لله تعالى ولرسوله ﷺ، قال تعالى عن حقه: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال تعالى عن حق رسوله ﷺ: ﴿ أَلَيْسَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦].

سعادة الروح والبدن:

ولقد بينَ تعالى أن حياة الإنسان الحقيقية وسعادته لا تتحقق إلا بتنفيذه أوامر الله تعالى وإقامته لتكاليفه؛ قال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۗ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَحُولٌ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٤﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَهَبْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۗ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ [طه: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْنَا أَهَبْطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۗ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ [البقرة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِنَشْقَىٰ ﴿١﴾ [طه: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ [محمد: ٢]، والسعادة هي صلاح البال وطمأنينة القلب وراحة النفس.

والقلب والنفس وما يدور فيهما من خواطر وأفكار وهمم وعزائم وإرادات يبيني ويترتب عليها أفعال العباد وأقوالهم، كل هذه الأمور التي تدور في خلد الإنسان وباله والتي لا طاقة له بمعرفتها لولا بيان الله تعالى في وحيه ونوره الذي أنزله لعباده.

فبهذين الأصلين؛ الأول: سلامة قلبه والذي بسلامته تسلم جميع جوارحه، كما ثبت في الحديث الشريف، قال رسول الله ﷺ «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله

وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب...»^(١).

الثاني: النور هو الوحي، كما قال تعالى: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨]، فالإيمان بالله ورسوله هو عمل القلب ومصدر سلامته وصحته، والنور وهو المنزل من عند خالق هذا الإنسان المفصل لكل احتياجاته الباطنة والظاهرة، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فإذا أذن الله تعالى بالتقاء هذين الأصلين نور الوحي مع نور القلب وسلامته فشم الحياة وشم السعادة، وفي هذا يقول تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

قال ابن قيم الجوزية - رحمه الله تعالى -: «أصل كل خير وسعادة للعبد بل لكل حي ناطق: كمال حياته ونوره، فالحياة والنور مادة الخير كله، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فجمع بين الأصلين: الحياة والنور، فبالحياة تكون قوته وسمعه وبصره وحيائه وعفته وشجاعته وصبره وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبه للحسن وبغضه للقيح، فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات، وحيائه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه، فالقلب

(١) رواه البخاري باب فضل من استبرأ لدينه رقم (٥٢) ومسلم باب أخذ الحلال وترك الشبهات رقم (١٥٩٩)، ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٢٦٤/٥)، رقم (١٠١٨٠) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

الصحيح الحي إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر^(١).

وما من أحد من أصحاب الحضارات إلا وهم الأكبر تحقيق السعادة لنفسه، والتي من أجلها بذل في الحياة جهده وأفنى عمره لتحقيقها، وأنى لهم بذلك بعيداً عن كتاب الله تعالى ووحيه، ولذا حاورهم القرآن في ذلك وأثبت لهم ألا سلطان لهم على قلوبهم ولا طاقة لهم في إدخال السعادة عليه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۗ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَحُولٌ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۗ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٤﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].
شفاء لكل أمراض الصدور:

لقد جمع الله تعالى في كتابه أدوية أمراض قلوب عباده أجمعين، فلم يدع داءً إلا ووضع له الدواء، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

و«ما» في الآية من ألفاظ العموم كما ذكر علماء الأصول، فهي تعم كل ما في الصدور من أمراض وغيرها، والمتدبر يجد أن: (جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للنوعين، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه الفاسدة للعلم والتصوير والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية؛ من التوحيد وإثبات الصفات وإثبات المعاد والنبوات ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرآن، فإنه كفيلاً بذلك كله، متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها وأقربها إلى العقول وأفصحها بياناً، فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية (١/٣٨).

منه، فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عياناً بقلبه كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم؛ بين علوم لا ثقة بها وإنما هي آراء وتقليد، وبين ظنون كاذبة لا تغني عن الحق شيئاً، وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها، وبين علوم صحيحة قد وعروا الطريق إلى تحصيلها وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها فهي لحم جمل غث على رأس جبل وعمر لا سهل فيرتقي ولا سمين فينتقل، وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريراً وأحسن تفسيراً^(١).

وباعتبار عظم هذه الأمراض وعظم تأثيرها على الإنسان فإنها تنقسم إلى نوعين، قال عنها ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «مرض القلب نوعان: نوع لا يتألم به صاحبه في الحال؛ وهو كمرض الجهل ومرض الشبهات والشكوك ومرض الشهوات، وهذا النوع هو أعظم النوعين ألماً، ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم، ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم وإلا فالله حاضر فيه حاصل له، وهو متوارٍ عنه باشتغاله بضده وهذا أخطر المرضين وأصعبهما، وعلاجه إلى الرسل واتباعهم؛ فهم أطباء هذا المرض.

والنوع الثاني: مرض مؤلم له في الحال؛ كالهلم والغم والغيط، وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية؛ كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب وما يدفع موجبها مع قيامها، وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يشقى به البدن ويشقى بما يشقى به البدن، فكذلك البدن يتألم كثيراً بما يتألم به القلب ويشقى ما يشقى»^(٢).

جند الله:

لقد وهبنا الله تعالى أعضائنا وجوارنا وسخرها لنا ومكنا منها وجندها لنا لتعمل تحت أمرنا، مع أنها ملكة تعالى وجنود من جنوده له تسبح وله تسجد وله تسلّم وله تقنت بالكيفية التي قدرها تعالى لها وإن لم نعرفها أو لم نفقهها، كما قال تعالى: ﴿تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية (١/٤٤).

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم (١/١٨).

حَلِيمًا غَفُورًا ﴿ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلِّلَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [الرعد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [الروم: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [البقرة: ١١٦]، وسيأتي لذلك تفصيل (١).

بل إن الله تعالى جعلها شهودًا على أصحابها تشهد عليهم يوم القيامة في كل ما خالفوا فيه أمر الله، وتحاورهم وتحاججهم في ذلك، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ لِيُجْزَىٰهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت: ٢٠-٢١].

وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: ٦٥-٦٦].

فإذا كان الله تعالى هو وحده خالق جوارحنا وقلوبنا وأرواحنا، وهو مالکها ومسخرها ومدبر أمرها وجامعها علينا يوم لقاؤه، ومشهداها على كل ما كان منا، فمن له حق الأمر وحق التشريع وحق الطاعة غيره، قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَبَلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

ونخلص من ذلك في مجال معاملة الإنسان لنفسه: أن لله وحده حق الخلق وحق الأمر والتشريع، وحق الهداية والإرشاد؛ فلا أحد أعلم منه بأسرار هذا الإنسان، ولا أحد أقدر على التشريع له من العليم الخبير، والذي قال عن تشريعه ومنهجه الذي رسمه لعباده: ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ

(١) ارجع إلى المطلب الرابع من هذا الفصل.

الَّذِي يَعْلَمُ الْسِّرِّي فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿﴾ [الفرقان: ٦]، بل هذا حق الخالق على خلقه أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، وهو حق الخلق على خالقهم أن يشرع لهم ما يصلحهم ويصلح لهم دنياهم وآخرتهم.

وأصحاب الحضارات انقسموا إلى فريقين: فريق عرف أن الله حق فأمن به وبرسله وكتبه واتبع أمره وترك نهيه، فأنزل الله عليه سكينته وأسعده وقواه وأعانه على طاعته، كما حدث مع السحرة حين عاينوا الحق وآمنوا فتحولوا في لحظة من محاويج يستعطفون فرعون طلباً لعطاياه ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣]، ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِن لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤١] إلى مستيقنين بالله يواجهون فرعون لا يخشون بطشه ولا يطمعون فيما عنده، كما قال تعالى عنهم: ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٥٠-٥١]، وقال أيضاً: ﴿ قَالُوا لَن نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِن بَرِيئَتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٣﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ٧٣].

وفريق ركب رأسه وانتكس على عقبه فأذاقه الله الحزى والعذاب في الحياة الدنيا والآخرة، كما حدث مع فرعون ومن استخفه من قومه فاتبعه وألهه ممن قال الله فيهم: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فأرسل الله عليهم عذاب تذكير لعلهم يرجعون في صورة رجز، قال عنه تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٦٠﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمُوسَىٰ اذْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٦٢﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣-١٣٦].

كل هذا في الدنيا، بل أخبر تعالى عن حالهم في قبورهم بعد غرقهم فقال: ﴿ وَحَاقَ بِآلِ

فَرَعُونَ سُوءَ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا
ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

وبمثل هذه الصور وغيرها من صور العذاب في الدنيا والآخرة عذب كل من كذب
وأجرم من أصحاب الحضارات، وعوفي من عوفي من أهل الإيثار، والله الحمد والمنة.

والقرآن الكريم يذكر محاوراة الأنبياء لأصحاب الحضارات في هذا، فيصف لنا كيف أن
كل نبي وكل إنسان لا يكلف إلا نفسه ليقومها ويصحح مسيرتها، قال تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ إِلَّا
نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا
وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف:
١٨٨]، ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١].

وهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام حين هده والدته بالقتل يعتزهم ليخلو مع نفسه تقويًا
لها، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُّكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ
رَبِّي شَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]، ولما اشتد عليه قومه اعتزهم قائلاً: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾
[الصافات: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

وهذا نبي الله موسى حين خيّل إليه أن حبال وعصي السحرة صارت حيات تسعى
فتوجس خيفة، فجاءه نداء الله ووحيه تثبيتاً له، قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَاهُمْ وَعِصِيَهُمْ سُحِبِلُّ
إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةٌ مُوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٦-٦٨]، وحين طلب من نبي الله موسى من قومه دخول الأرض المقدسة
فتبرأ إلى الله منهم، وفتح إلى الله متذلاً أنه لا يملك إلا نفسه، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا
أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

وهذا نبي الله عيسى عليه السلام يتبرأ ممن اتخذوه وأمه إلهين من دون الله ويخضع النفس
لآمرها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ لِلنَّاسِ آخِذُونِي وَأُمِّيٰ لِلنَّهْيَيْنِ

مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ
تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ [المائدة: ١١٦]، بل
هذه النفس وطغيانها هلكت ثمود، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١٦﴾ إِذِ انْبَعَثَ
أَشْقَاهَا ﴿١١٧﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١١٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدمَمَ عَلَيْهِمْ
رَبُّهُمْ يَدَنِيهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١١٩﴾ [الشمس: ١١-١٤]، وقال تعالى: ﴿ فَتَادُوا صَاحِبِهِمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿١٢٠﴾
[القمر: ٢٩]، ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٢١﴾ [الشعراء: ١٥٧].

المطلب الثالث

معرفة الإنسان للبشر

وكيفية التعامل معهم

إن من أطول الحضانات حضانة الإنسان، فهو يحتاج عامين للرضاعة، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَّلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

وبعد الرضاع يحتاج لحضانة تتراوح بين سبعة إلى أربعة عشر عامًا، فسن البلوغ والتكليف للإنسان يبدأ من سن التاسعة عند الإناث والعاشر عند الذكور ويستمر عند البعض حتى سن الخامسة عشر أو السادسة عشر^(١)، وهذه من أطول الحضانات، فجُلُّ المخلوقات لا تستغرق حضانتها إلا سويحات أو أيامًا أو شهرًا، وهذا يدلنا على عظم هذا الإنسان وتكريم الله تعالى له، ولذا أتاح له أطول فترة تعليم حتى يؤهل لحمل أعظم أمانة وأعظم تكليف، أمانة ناء بحملها السموات والأرض وحملها الإنسان، وقال عنها تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، هذه الأمانة التي كلّف الإنسان بتعلمها وفهمها والعمل بها في نفسه ومع الناس من حوله، فهو لا يجيا على هذه الأرض وحده، بل هو جزء من هذه البشرية المنتشرة بطول الأرض وعرضها، يؤثر فيها ويتأثر بها شاء أم أبى، رضي أم لم يرض.

(١) ذكر فقهاء المذاهب أنه بالاستقراء تبين أن بدء محيض المرأة في التاسعة وبدء سن بلوغ الرجل في العاشرة ويستمر بدئه عند بعضهم حتى الخامسة عشر أو السادسة عشر واستدلوا على ذلك بخبر عبد الله بن عمر قال: «عرضني رسول الله ﷺ يوم أحد للقتال وأنا ابن أربعة عشر سنة فلم يجزني، وعرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشر سنة فأجزني» والحديث متفق عليه واللفظ لمسلم، قال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث إن هذا الفرق بين الصغير والكبير نقل ذلك فتاوى الشبكة الإسلامية المعدلة باب علامات بلوغ الذكر والأنثى (١٩/٣).

ولذا كان أهم موضوعات الأمانة: حمل الحق المنزل من عند الله تعالى لعباده، وحملهم عليه إصلاحًا لهم ولمعاشهم، وإسعادًا لهم في دنياهم وآخرتهم، وإنقاذًا لهم من عذاب دنيا غيب الحق عنها فسادها الظلم وذاق بعضهم بأس بعض، ونجاة لهم من غضب الله في الدنيا والآخرة ومن عذاب النار يوم القيامة.

فحمل الأمانة يستوجب على الإنسان أن يصلح من نفسه، وأن يصلح الناس من حوله ما استطاع في أيام عمره المحدودة والمحددة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢]، وقال تعالى عن مهمة نبيه شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَنْقُومِ أَرَهُ يَتَمَّرُ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

حقيقة الأمانة:

بيننا في صدر هذا الفصل مدى جهل الإنسان بأسرار نفسه وأسرار الخلق من حوله مما حدا به للوقوع في المظالم مع من حوله من المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وآتى للجهول أن تصدر عنه حكمة، وآتى للظلم أن يصدر عنه عدلًا؛ لذا تكفل الخالق الذي أحاط بكل شيء علمًا، وقام بالعدل والقسط في الخلق كله بوضع ميزان العدل والقسط المبني على علمه؛ رفعًا للظلم عن عباده، ونشرًا للعدل بينهم، وإحقاقًا للحق، وإبطالًا للباطل في دنياهم وآخرتهم، ويفصل لنا القرآن ذلك:

كما في قوله تعالى عن علمه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

وفي قوله تعالى عن قيامه بأكمل العدل: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَابِئًا بِالْقَسْطِ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وفي قوله تعالى عن وضعه الميزان وبنائه على علمه: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١-٤].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الزُّنْبَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٧-٩]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُفُونًا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المائدة: ٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ حَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فهذا الإله الحق له الحق كل الحق في التشريع لعباده؛ بل هذا حقه الخالص له وحده وإن نازعه في ذلك من نازع من أصحاب الحضارات على مر التاريخ كله، وإليك بيان ذلك:

أحقية الله في التشريع:

١- العلم بالتشريع: يعتمد كل من يشرع للناس من أصحاب الحضارات وغيرهم على علمهم بأحوال الناس المبني على تجاربهم السابقة في تعاملهم مع الناس، وهذه التجارب مهما عظمت محدودة بمن يتعامل معهم ذلك المشرع، ومهما كثروا فهم قلة من جيله، فلا طاقة لأي زاعم أن له حق في التشريع للناس أن يدعي أنه جرب التعامل مع كل إنسان عاصره في مشارق الأرض ومغاربها، فتجاربه محدودة وطاقته فيها محدودة، وكما قال عن ذلك تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [الروم: ٦-٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

أما علم الله بالتشريع فعلم غير محدود، فهو تعالى أحاط بكل شيء علماً كما وصف بذلك

نفسه فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْمُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَغَيْرُ الْبَرِّ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خِفْتُمْوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وهو تعالى الخبير بكل تجارب البشرية بلا حدود مكانية؛ فعلمه محيط لكل أهل الأرض من مشرقها إلى مغربها، وبلا حدود زمانية؛ فعلمه محيط بالبشرية من قبل خلق آدم بل من الأزل إلى قيام الساعة بل وإلى الأبد، لذا بيّن تعالى أن تشريعه الذي حواه كتابه بناه على علمه، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ سَجِّتَ إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلَّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ﴾ [طه: ٧].

٢- علم الإنسان: أضف إلى ما سبق أن علم الإنسان لا يتجاوز من الإنسان - كما سبق بيانه - إلا بعض ظواهر مادة الإنسان، ولا علم له بروحه البتة، مع العلم أن الإنسان يتعامل مع القوانين والشرائع بروحه ومادته جميعًا، فكيف يشرع الإنسان لما لا علم له به ويترك تشريع العليم الخبير: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

٣- تجارب الإنسان: إن الشرائع والقوانين التي يسنها الإنسان لغيره من البشر بناءً على تجاربه السابقة يسنها لواقع جديد ومستقبل وأجيال غير التي خاض التجارب معها، فما الذي يضمن له صلاح الأجيال الجديدة وقبولها لهذه الشرائع؟! وما الذي يضمن له وقوع المستقبل وهو غيب عنه حين شرع بناءً على الواقع الماضي الذي بني وسن عليه تشريعه؟! إن الفاحص

البصير يدرك أن تشريع الإنسان للإنسان مغامرة غير محسوبة على وجه الدقة؛ بل مجازفة، بل مهلكة مضلة وضراء مضرّة، فعلى كل عاقل أن يثوب إلى رشدّه، ويرجع إلى ربه، وينقلب إليه بصره خاسئاً وهو حسير.

الله تعالى وحده هو علام الغيوب كما حكى عن ذاته تعالى فقال: ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥-٦٦]، وقال تعالى: ﴿ عَلِيمُ الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مَبْتَهَا عَمُونَ ﴾ [النمل: ٦٥-٦٦]، وقال تعالى: ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ عَلِيمُ السَّهَدَةِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [التغابن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنزِّلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة: ٨]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ حَكَمٌ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [سبأ: ٣]، وقال تعالى: ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩]، وقال تعالى: ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ [السجدة: ٦].

فمن إذن أحق بالتشريع للإنسان في واقعه ومستقبله غير الله تعالى، قال تعالى: ﴿ أَفَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤]، قال تعالى: ﴿ أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣]، قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِئِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

بل ينكر الله تعالى ذلك على البشرية فيقول: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٢١].

إن التعامل مع البشر يحتاج منا أن نعرف أولاً: طبيعة البشر، ثانياً: كيفية التعامل معهم.

أولاً: لا بد لكل من يتعامل مع الإنسان أن يعرف طبيعته وفطرته التي فطر عليها، فإن بين الناس قدرًا مشتركًا من الطبيعة والتركيب والطباع؛ كوجود روح وقلب ومشاعر ونفس رُكب فيها القدرة على الطاعة والقدرة على المعصية، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۗ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۗ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۗ﴾ [الشمس: ٧-١٠]، والواقع والآية يدلان على أن للإنسان طباعًا مجبولةً عليها وأخرى مكتسبة، فالطباع المجبولة سوّيت مع تسوية النفس، والمكتسبة جاءت من التزكية أو التدسية، ويؤيد ذلك الحديث الصحيح الذي رواه أبو يعلى في مسنده وغيره^(١):

قال: (حدثنا محمد بن صدران أبو جعفر، حدثنا طالب بن حجير العبدى، حدثنا هود العصري عن جده قال: بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذ قال: «يطلع عليكم من هذا الوجه ركب من خير أهل المشرق»، فقام عمر بن الخطاب فتوجه في ذلك الوجه فلقي ثلاثة عشر راكبًا فرحب وقرب، وقال: من القوم؟ قالوا: قوم من عبد القيس قال: فما أقدمكم هذه البلاد؟ التجارة؟ قالوا: لا قال: فتبيعون سيوفكم هذه؟ قالوا: لا، قال: فلعلكم إنما قدمتم في طلب هذا الرجل؟ قالوا: أجل، فمشى معهم يحدثهم حتى نظر إلى النبي ﷺ، فقال لهم: هذا صاحبكم الذي تطلبون، فرمى القوم بأنفسهم عن رحالهم، فمنهم من سعى سعيًا، ومنهم من هروا، ومنهم مشى حتى أتوا رسول الله ﷺ، فأخذوا بيده يقبلونها وقعدوا إليه، وبقي الأشج - وهو أصغر القوم - فأناخ الإبل وعقلها، وجمع متاع القوم ثم أقبل يمشي على تؤدة حتى أتى رسول الله ﷺ فأخذ بيده فقبلها، فقال النبي ﷺ: «فيك خصلتان يجبهما الله ورسوله». قال: وما هما يا نبي الله؟ قال: «الأناة والتؤدة» قال: أجبلاً جبلت عليه أو تخلقًا مني؟ قال: «بل جبل»، فقال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحب الله ورسوله.

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٢٤٥/١٢)، رقم (٦٨٥٠)، والمعجم الكبير (٣٤٥/٢٠)، رقم (٨١٢)، والطبقات الكبرى والاستيعاب وكنز العمال وغيره، وقال سليم حسين أسد: إسناده حسن.

وأقبل القوم قبل تمرات لهم يأكلونها، فجعل النبي ﷺ يسمي لهم هذا كذا وهذا كذا، قالوا: أجل يا رسول الله، ما نحن بأعلم بأسائها منك، قال: «أجل»، فقالوا لرجل منهم: أطعمنا من بقية الذي بقي من نوطك، فقام فأتاه بالبرني، فقال النبي ﷺ: «هذا البرني أما إنه من خير تمراتكم، إنما هو دواء ولاداء فيه».

والطباع منها العام الذي يتسم به كل إنسان سواء من أصحاب الحضارات أو غيرهم، ومنها الخاص بفتة أو بيئة أو مرحلة عمرية معينة، ومنها الطباع الفردية التي استقل بها أناس بأعيانهم دون غيرهم من الناس؛ ومثال الأول: حنو الأمومة والأبوة كما قال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، فالحنو على الأولاد والتربية فيها فطرة ارتبطت بالأولاد خاصة في الصغر، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْتًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَّلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقال أحمد شوقي أمير الشعراء في وصف النبي ﷺ:

وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان في الدنيا هما الرحماء (١)

ومثال الثاني: ضعف النساء في الخصومة، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَن يُنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]، واختلاف حال الناس بين القوة والضعف مع اختلاف مراحل العمر، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

فلا يستوي القوي والضعيف، وكل إنسان يتسم بالضعف في الطفولة والشبيبة لا محالة، وكما قال الشاعر:

(١) من ديوان أحمد شوقي، قصيدة ولد الهدى، موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ (١٨/٩).

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما صنع المشيب (١)

واجتماع فئة من الناس على صفة كالنفاق، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١١﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا تَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبِرَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٣﴾ [الحشر: ١١-١٢].

ومثال الثالث: ما حكاه القرآن الكريم عن معاهد الله بطاعة مضيع لعهد، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنِ آتَيْنَاهُم مِّن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِم وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْتَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

ومثال آخر: بلعام بن باعوراء الذي انسلخ من آيات الله بعد أن أعطيها، وقال عنه تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، والقرآن الكريم صنف الناس من أصحاب الحضارات وغيرهم تصنيفاً دقيقاً تحت عنوان: ﴿وَمِنَ النَّاسِ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨]؛ بل عمد القرآن الكريم إلى فئات بعينها فصنفها صنفاً صنفاً كما فعل ذلك مع المنافقين وأهل الكتاب تحت عنوان: ﴿وَمِنْهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨].

(١) لأبي العتاهية، نهاية الأرب في فنون الأدب (١/١٣١)، ونسبه ابن الأعرابي في معجمه إلى الرياشي (٤٤٢/١)، وقيل: لمحمد بن عبد الملك الزيات، وقيل: لحاتم الطائي.

ثانياً: كيفية التعامل معهم:

بعد أن رأينا تصنيف القرآن للناس نجد أنه مع ذكر كل صنف قد ذكر طباعهم وخصالهم وكيفية التعامل معهم.

لقد حاور القرآن الكريم أصحاب الحضارات وواضعي الشرائع في أحقيتهم في التشريع وفي أصل التشريع، بل عمد إلى كثير من شرائعهم؛ بل أعظمها في نظرهم فأبطلها وبين زيفها؛ كتحليلهم وتحريمهم لبعض الطعومات والذبائح، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَجْحِيقٍ وَلَا سَابِغَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّالِّينَ أَتَيْنَ وَمِنَ الْمَعْرِزِ أَتَيْنَ قُلُوبَ الَّذِينَ كَفَرُوا حَرَّمَ أَمْرَ الْأَنْثِيَّيْنَ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثِيَّيْنَ نَبِيُونِي بَعْلَمَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ أَتَيْنَ وَمِنَ الْبَقَرِ أَتَيْنَ قُلُوبَ الَّذِينَ كَفَرُوا حَرَّمَ أَمْرَ الْأَنْثِيَّيْنَ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثِيَّيْنَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَلَكُمُ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤]، فحاورهم القرآن إجمالاً، وحاورهم تفصيلاً حواراً لا يملك العاقل أمامه إلا التسليم لرب العالمين عز وجل، وأنه أحق بالتشريع من غيره.

المطلب الرابع

معرفة الإنسان بكل ما حوله من الخلائق غير البشر وكيفية التعامل معهم

لقد منَّ الله تعالى على البشرية حين أعلمها أن الكون من حولها ينقسم إلى عالمين وهما: عالم الغيب، وعالم الشهادة، وعن هذا قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩]، وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [السجدة: ٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [التغابن: ١٨] فهذه الآيات الكريمة تثبت لله تعالى علماً شاملاً بما أسماه: ﴿ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾.

أولاً: عالم الغيب: وهو كل ما غاب عن الإنسان مما لا تدركه حواسه.

ثانياً: عالم الشهادة: وهو كل ما يدركه الإنسان بحواسه سواءً بذاتها أو بألة.

والتفاوت بين العالمين قائم بالنسبة لإدراك البشر ووسائلهم، لا بالنسبة لحقيقة وجودهما، لذلك فهما في علم الله سواء، فالغيب عنده شهادة، والسر عنده علانية، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصَرُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩].

والغيب والشهادة قد يكونان نسييين، فيتحول شيء من عالم إلى آخر حسب إدراك الإنسان له وعدمه، فمثلاً هذا العالم المادي من حولنا هو من عالم الشهادة، لكن بدءه ونشأته هما من عالم الغيب بالنسبة لنا، قال تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [الكهف: ٥١]، لذلك لا يلتقى علمها إلا عن

طريق الوحي المعصوم، الذي أوحاه الخلاق العليم.

وقد يكون الشيء من عالم الغيب ذاتاً، ومن عالم الشهادة آثاراً؛ كالكهرباء والمغناطيس، والمخلوقات الدقيقة التي لا تُرى كالجراثيم وغيرها، ثم إن كل ما يُكتشف منها يتحول إلى عالم الشهادة، ليكون دليلاً ناهضاً يخرس منكري الغيب، ويعلمهم أنهم لم يبلغوا من العلم إلا قليلاً^(١).

وهذان العالمان قد مثلنا بالمخلوقات؛ منها الغيب ومنها المشاهد، تؤثر فينا وتتأثر بنا، لذا لزمنا التعامل معها، فكيف نتعامل مع ما نجهل؟ والإنسان لو تعامل مع أي جهاز من الأجهزة الحديثة وهو يجهره وبدون دليل من عند صانعه، سيفسده لا محالة، فكيف يتعامل الإنسان مع ملايين الخلائق من حوله وهو يجهرها بدون دليل من عند خالقها وصانعها والعليم بها والمدبر لأمرها؟ قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]، وخاصة عالم الغيب؛ كالملائكة والجن والشياطين والجراثيم وغيرها، بل حتى المشاهد، فإننا معشر البشر لا ندرك من هذا العالم إلا بعض ظواهره، قال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فمن من البشر يُحصي هذه الأمم أو يُحصي قواعد التعامل معها؟! وأتى له بذلك.

إن هذا الجانب قد اختص الحق - تبارك وتعالى - بعلمه وعلمه الإنسان عن طريق وحيه المنزل على أنبيائه وخاصة سيد المرسلين محمد صلى الله عليهم أجمعين وسلم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [فاطر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ] [الملك: ١٣-١٤]، وهذا يستوجب أن نعرف قدر هذا الرب

(١) المنهاج القرآني في التشريع، للأستاذ الدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد (ص ٥٠).

وحقيقة ربوبيته للخلق، وإليك البيان:

ربوبية الله للكائنات:

الربوبية لها ركنان:

٢- التدبير وفق أمره.

١- الخلق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وتفصيل ذلك كما يلي:

أولاً: ربوبية الخلق:

لقد خلق الله الخلق كله كما قال تعالى عن ذاته: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُهُ الْخَلْقُ عَلِيمٌ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاَنى تَتُوكُونَ﴾ [غافر: ٦٢].

وليس للكون خالق غيره كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَدْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاَنى تَتُوكُونَ﴾ [فاطر: ٣]، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [٥٥] أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]، بل إن أول ما نزل من القرآن ذكر ذلك، قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

وهذا الخلق كله مقدر ومحسوب ومرتب وفق حكمة الحكيم العليم، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ

كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]، وحرمة هذا الكون كلها جرت بحساب مقدر معلوم، قال تعالى: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥]، ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]، حتى النبات جاء وفق هذا الميزان الدقيق والقدر المقدور، كما قال تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ [الحجر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [ق: ٧].

(فالأرض مدت بحساب، والرواسي ألقيت على ظهرها بتقدير ونظام، والنبات - كثرته الوافرة - قام على عناصر موزونة بمعايير دقيقة، ومتوازنة بتقدير خاص، حتى تعطي لكل زوج منه مشخصاته من الطعم واللون، والصورة والفائدة... إلخ^(١))، وعز من ينازع من أصحاب الحضارات وغيرهم في أن الله تعالى هو الخالق بلا نزاع، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الزخرف: ٩]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

ثانياً: ربوبية الملك والتدبير والأمر:

الله عز وجل وحده مالك هذه المخلوقات جميعها لا ينازعه فيه منازع، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الأنعام: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ

(١) المنهاج القرآني في التشريع للأستاذ الدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد (ص ٥٩).

وَصَيَّنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣٠﴾ ۖ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣١﴾ [النساء: ١٣٠-١٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ ۖ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ [النساء: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ [النحل: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ [طه: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۗ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٢﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۗ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٢﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٣﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۗ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٤﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، وغيرها من الآيات كثير مما يدل على ملكية الله تعالى لجميع المخلوقات بلا منازع.

وهو وحده المتصرف في ملكه كيف يشاء، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ۗ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۗ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۗ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ۗ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلِيلُ ۗ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

وهو القيوم القائم على شئون الكون كلها، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَابِئًا عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُوهُمْ ۗ أَمْ تُنْتَهُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظُهُرُ مِنَ الْقَوْلِ ۗ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَضُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ [الرعد: ٣٣].

بل هو نور السموات والأرض ومن فيهن، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

ولذا كان الحبيب محمد رسول الله ﷺ يناجي ربه كل ليلة في السحر بهذه المعاني الثلاث، كما في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان عن طائوس عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام يتهجد من الليل قال: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك، والجنة حق، والنار حق، والبعث حق، والنبون حق، ومحمد ﷺ حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاکمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أعلنت وما أسررت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(١).

وإذا كان الله هو الخالق وهو المالك المدبر لشيئون خلقه، فمن له حق التوجيه والتربية غيره، لذا ذلت له الكائنات وعبدت، ونفوس كثير من أهل الحضارات نازعت وأبت.

◆ عبودية الكائنات لربها:

وتتمثل هذه العبودية في خضوع هذا الكون كله -دقيقه وجليله- لله رب العالمين خضوع تذل وعبادة، وهى هنا بمعناها الواسع كما وصفها ابن تيمية -رحمه الله تعالى- فقال: «العبودية هي غاية الحب مع غاية الذل» فعبودية الكون لله عبودية محبب لربه، عالم بعظمته، قانت لربه القنوت الذي يحبه ربه ويرضاه، ثم هو يخشى مساءلة الرب وحسابه وعقابه، ويؤخذ من هذا ما يلي:

(١) رواه البخاري باب الدعاء إذا اتبته من الليل رقم (٦٣١٧)، ومسلم باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه رقم (١٩٩)، والنسائي رقم (١٣١٩)، وابن ماجه رقم (١٣٥٥)، وغيرهم.

أولاً: كون مدرك:

للغيب قوانينه التي تختلف عن قوانين المشاهد، فمن الخطأ قياس الغائب على الشاهد، أو حصر صورته ووسائله في نطاق عقولنا ومعارفنا المحدودة، وإلا كان ذلك المعيار تحكيمياً باطلاً.

وهذا الكون له إدراك ما، بكيفيات يعلمها الله رب الكون، كما ورد في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شاتين ينتطحان، فقال: «أتدري فيم ينتطحان يا أبا ذر؟» قلت: لا. قال: «لكن الله يدري وسيحكم بينهما»^(١).

وقد أخبرنا بذلك الكتاب وأخبرتنا السنة، فرب العزة بين لنا في القرآن الكريم أن لهذه المخلوقات أقوال، وأفعال، وأحوال، ومسئوليات ومثال ذلك ما يلي:

١- الأقوال:

(أ) أقوال الجمادات: ومثال ذلك: قول السموات والأرض لربها: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ رداً منها على أمر الله تعالى لهما كما في الآية: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وهذا يدلنا على إدراكها لأمره تعالى ولخطابه، وتمييزهما بين الطوع والكراهة، واختيارهما لأمثل الأمرين.

(ب) أقوال غير الجمادات: ومثال ذلك: قول النملة لنبات جنسها حين أحست بخطر يحدق بهن: ﴿قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، وكذلك قول الهدد لنبى الله سليمان عليه السلام: ﴿أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِمْ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ﴾ [١١] إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء وهما وعرش عظيم ص وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ص ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ص الله لا إله إلا هو رب

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٢/١)، ومسند الطيالسي باب أتدري فيما ينتطحان؟ رقم (٤٧٦).

الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿ [النمل: ٢٢-٢٦]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا هُمَ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢]، بل إن الهدهد جعله الله تعالى سبباً في هداية أمة بأكملها وهم أصحاب حضارة وهم أهل سبأ؛ فهدوا إلى صراط الله المستقيم بسبب تنبيهه لنبي الله سليمان عن أحوالهم وكفرهم وأغراه بتوجيه الدعوة إليهم؛ بل كان هو أول مبلغ لهم حين حمل كتاب نبي الله سليمان لهم.

ولقد علم الله عز وجل نبيه سليمان لغة الكلام عند الطير، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ ۗ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۗ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿ [النمل: ١٦].

(ج) أقوال الجن: ومن ذلك ما حكاه الله عنهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿ يَنْقُومِنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنَّا مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿ يَنْقُومِنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿ [الأحقاف: ٢٩-٣٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿ وَأَنَّهُ تَعَلَّىٰ جَدًّا رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿ [الجن: ١-٣]، إلى آخر أقوالهم في السورة التي سميت باسمهم سورة الجن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿ [النمل: ٣٩].

(د) أقوال الملائكة: والتي منها قول الله تعالى عنهم: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ وَقِهِمْ

السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِيَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۖ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ [غافر: ٧-٩].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿ [آل عمران: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ وَتَتَلَقَّهُمُ الْمَلَأِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَأِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿ [فصلت: ٣٠].

٢- الأفعال:

(أ) أفعال الجهادات: من ذلك ما ورد عن نسبة الولد لله تعالى كما حكى القرآن ذلك عنها، فقال: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿ [٨٨] لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿ [٨٨] تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿ [٩١] أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿ [مریم: ٨٨-٩١]، وقال تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ۗ وَالْمَلَأِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِنَّ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ [الشورى: ٥].

ومن ذلك عدم بكائها على هلاك المجرمين من البشر من أصحاب الحضارات؛ مثل فرعون وقومه، كما قال تعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿ [الدخان: ٢٩]، وذكر تعالى الأرض وأنها لا تحجب من خيرها شيئاً على من أطاع الله تعالى، فقال تعالى عن صاحب الجنة: ﴿ وَأَضْرَبَ هُمْ مَثَلًا لِرَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهَا بِنَخْلِ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿ [الكهف: ٣٢-٣٣].

ويؤخذ ذلك المعنى من قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ تَظْلِمْنَا مِنْهُ شَيْئًا ﴿ فنفى تعالى عنها أدنى ظلم منها لصاحب الجنة وأعطته كل ما عندها من خير، فهذا من قوله تعالى: ﴿ ءَأَتَتْ أُكُلَهَا ﴿ ومن

ذلك قوله تعالى عن الجدار: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف: ٧٧].

وبعض أهل العلم قد تحفظ في مثل هذه الآيات؛ كالإمام الخازن وغيره، وأن الله تعالى في وصفه لها بالقول أو بالفعل أجراها مجرى من يعقل، وهذا التحفظ أمر اصطلاحى، ومبناه على قياس الغائب على الشاهد، ووصف الحق تعالى أولى بالتأمل، وأجدر بإثبات حقيقة الإدراك والإرادة على الوجه السابق شرحه.

(ب) أفعال غير الجمادات: ومن ذلك سفر الهدهد إلى سبأ برسالة نبي الله سليمان إلى ملكة سبأ، فكان الهدهد سبباً في هداية أصحاب حضارة بأكملها للحق، وفي هذا يقول تعالى: ﴿أَذْهَبَ بِكُنُوبِي هَذَا فَالْقَهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨].

ومن ذلك أيضاً شق الحوت طريقه بإرادة في البحر بعد أن كان حبيساً مع نبي الله موسى وفتاه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣].

ومن ذلك أيضاً الغراب وهو يعلم ابن آدم الأول كيف يوارى سوءة أخيه الذي قتله، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّلتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]، فصار الغراب أول لحاد علم الإنسان كيفية الدفن.

ومن ذلك سعي النحلة على رزقها، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۗ تَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

وقد أخبرنا الحق -تبارك وتعالى- أنه تولى معاش كل ما يدب على الأرض وعلم مواضعه، فقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا

اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۗ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ [العنكبوت: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ ۗ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٩].

(ج) أفعال الجن: ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَلُسَيْمِنَ الرِّيحِ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ ۗ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۗ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۗ وَمَن يَزِغْ مِنْهُم عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿ [س: ١٢-١٣]، وقال: ﴿ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يُغْوِصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ۗ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿ [ص: ٣٦-٣٨]، وهذا يدلنا على أن الجن أصحاب حضارة.

(د) أفعال الملائكة: ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿ يَعْمَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿ تَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿ [النحل: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْلًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقَوْلُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿ [التحريم: ٦].

٣- الأحوال:

(أ) أحوال الجهادات: ومثال ذلك: قول الله تعالى عنها: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ ۗ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴿ [الرعد: ٣١]، وجواب لو هنا: لكان هذا القرآن، روي عن الفراء كما ذكره القرطبي وابن كثير والبعثي وغيرهم، وقيل: الجواب: لكفروا بالرحمن، وقال تعالى عن الحجارة: ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۗ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا

يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَمَاءٌ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهِيْطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿البقرة: ٧٤﴾، وقال تعالى عن السماء: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ؕ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨]؛ أي بيوم القيامة.

(ب) أحوال غير الجهادات: ومثال ذلك: قول الله تعالى عنها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى: ٥]، ولقد جند الحق -تبارك وتعالى- الطير والجن لنيه سليمان عليه السلام فكانوا من خيرة الأجناد، وقد بين الله ذلك فقال: ﴿وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

(ج) أحوال الجن: ومثال ذلك: قول الله تعالى حكاية عنهم قالوا: ﴿وَأَنَا ظَنْنَا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢-١٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَهَمَ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

(د) أحوال الملائكة: ومثال ذلك: قول الله تعالى عنهم: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَتْهُ مِنْ خَشْيَتِهِ مَشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفِيعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

٤- المسئوليات:

(أ) الجهادات: جعل الله تعالى لها مهام ومسئوليات تؤديها، قال عنها تعالى على سبيل المثال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

(ب) غير الجهادات: قال تعالى عن بعضها: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿١٥﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ

حُشِرَتْ ﴿ [التكوير: ٤-٥].

(ج) الجنان: قال تعالى عنهم: ﴿ وَمِنَ الْجِنَّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۗ وَمَن يَزِغْ مِنْهُم ۗ عَن أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سبأ: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا بِمِعْشَرِ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿ يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذِذُونَكُم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿ يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِن أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩].

(د) الملائكة: قال تعالى عنهم: ﴿ وَمَن يُقَلِّمْ مِنْهُمُ إِفْرًا ۖ لَّيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ فِذْلٌ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۗ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعَدَ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم: ٢٦].

ثانياً: كون عابد:

١ - لله مسبح:

يُثِبْتِ الْحَقَّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - صِفَةُ التَّسْبِيحِ لِكُلِّ مَخْلُوقَاتِهِ مِنَ الْجَمَادَاتِ؛ كَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَغَيْرِ الْجَمَادَاتِ، وَعَنْ هَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤]، والآية الكريمة تدفع شبه المنكرين أو المتأولين؛ لأنها قامت على غير علم ولا فقه؛ قال تعالى: ﴿ سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحديد: ١]، ﴿ سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ١]، وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٌ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[الجمعة: ١]، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣].

وذكر الحق -تبارك وتعالى- لنا ترجيع الجبال والطيور مع نبي الله داود حال تسييحه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أُوتِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُثِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [طه: ١٨]، وقال تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُمْ آوَاتٌ﴾ [ص: ١٨-١٩]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

٢- لله ساجد:

لقد أكد الحق -تبارك وتعالى- وأثبت صفة السجود للكائنات كلها الجامدة وغيرها حتى ظلالها، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يَنْهَى اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [طه: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [التكوير: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَسْجُدُونَ لِلَّهِ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٥٠].

وكيف لا يسجد له كل شيء حتى الظلال وهو وحده الذي أوجدها وسخرها ودبر أمرها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [طه: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

٣- لربه سائل:

الكل محتاج إلى الغني والله هو الغني الحميد، حتى الجمادات في أشد الحاجة إليه، فمن يمنع السموات والأرض من الزوال غيره، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَاً وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكْتُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، وكذلك غير الجمادات، فكل دابة في حاجة إلى رازقها، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

والله تعالى حفظ هذه الدواب للبشر ولو أخذهم بذنوبهم ما أبقى منها دابة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَرْبَ اللَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، وبين تعالى أن الكل لله سائل، فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

٤- لله قانت:

(لم تخرج الكائنات عن عبوديتها لمولاهما، وإنما اختارت «عبودية التسخير»، وتركت للإنسان «عبودية التخير»). يقول الراغب رحمه الله: «العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى... والناس كلهم عباد الله، بل الأشياء كلها كذلك؛ لكن بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار».

ويصف الله تعالى الكائنات جميعاً بصفة وصف بها خاصة أنبيائه وأوليائه^(١) فقال: ﴿بَلْ

(١) قال تعالى عن نبيه إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى عن مريم: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْآفَنِينَ﴾ [التحریم: ١٢].

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَبِيْتُونَ ﴿ [البقرة: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَبِيْتُونَ ﴾ [الروم: ٢٦]، والقنوت «لزوم الطاعة مع الخضوع» ولفظ «ما» في الآية الأولى موضوع في لما أسماه العلماء «ما لا يعقل» فلها قنوت حقيقي وإن كنا لا ندرى كنهه وحقيقته^(١).

٥- لله أسلم:

فالكون كله أسلم لله قياده وسبج في مسيره الذي رسمه الحق -تبارك وتعالى- له، ولم يجد عنه قيد أنملة، قال تعالى: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

بل إن الله تعالى ينكر على البشر كيف لا يسلمون لله وهم في وسط كون كله لله أسلم، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ أَفَغَيْرِ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣].

ثالثاً: كون مسئول ومحاسب:

- الكل ميت وفان: كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْنَا فَا نِ ۖ وَيَبْعَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَنَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۗ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۗ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۗ ﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]، وقال تعالى: ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۗ ﴾ [مريم: ٨٠].

- الكل سيحشر لا محالة: كما قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي

(١) المنهاج القرآني في التشريع للأستاذ الدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد (ص ٦١، ٦٢).

الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿ [الزمر: ٦٨]، ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ لَجْمَعَنَّهُمْ جَمْعًا ﴿ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿ [التكوير: ١-٧].

- الكل مجيب لربه: قال تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿ [الانشقاق: ١-٥].

- المسؤولية الحسابية: (القرآن والسنة واضحان في تقرير المسؤولية الحسابية على كائنات غير الإنسان، مما يظن الإنسان أنها تمضي في هذا الكون هملاً بلا حساب ولا جزاء، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿ [التكوير: ٥]، والمعنى الذي نرجحه في تفسيرها: أنها تُجمع للحساب والقصاص، ثم يقضي الله تعالى فيها بما شاء، حسبما اقتضته حكمته من خلقها وتكليفها، وقدر ونوعية جزائها تعويضاً أو قصاصاً^(١).

وقد جاء في السنة تفصيل هذا كقوله ﷺ: «لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلهاء من الشاة القرناء»^(١)، والجلحاء التي لا قرن لها^(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «أتدري فيم ينتطحان يا

(١) انظر في هذا: كتب التفسير، وفي تفسير المنار بحث واسع في هذا عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿ [هود: ٦].

(٢) رواه مسلم باب تحريم الظلم رقم (٢٥٨٢)، والترمذي باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص رقم (٢٤٢٠)، ورواه أيضا البيهقي في السنن ومسنند أبي يعلى، رقم (٢٦٠٥)، وأحمد رقم (٧٢٠٣)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٧١٣) من حديث أبي هريرة.

(٣) المنهاج القرآني في التشريع للأستاذ الدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد (ص ٦٤).

أبا ذر؟» قلت: لا. قال: «لكن الله يدري وسيحكم بينهما»^(١).

لذا نقرر من هذا العرض الشامل عدة حقائق:

١- أن كل ما أله الناس - وخاصة أصحاب الحضارات - مقهور مربوب خاضع لله ليس له من نفسه شيء والله منه كل شيء، فأنى له أن يؤثر في الكون بذاته تأثيراً يستحق به عبادة أو تقديساً.

٢- أن حكم الله ماضٍ نافذ في الكون كله لا طاقة للخلق في دفعه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿١٠﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿١١﴾﴾ [الطور: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١٠﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿١١﴾﴾ [المعارج: ١-٢]، وكل الخلائق تدور في فلكها المقدور في نظام مهيب خاضعة وخاشعة لمولاها.

٣- أن الإنسان خلق من الخلق، قال تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِمُ أَهْمَ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾﴾ [الصفات: ١١]، وزوج من أزواج، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩]، وأمة من أمم، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أُمَثَلَكُمَ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نُمِرَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨]، وشاء الله أن تكون عبوديته «التخيير» وعبودية غيره «التسخير»، ومهل إلى حين، ثم يبعث ليتلقى جزاءه يوم الدين.

٤- أن للخلائق من حولنا منطقتها ولغتها التي تتعامل بها فيما بينها، وفلكها الذي رسم لها تسبح فيه بأمر ربها: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

٥- أن الإنسان لا قدرة له ولا طاقة على التعامل السليم مع هذه المخلوقات بدون وحي

(١) رواه أحمد في المسند (١/٣٢)، ومسند أبي داود الطيالسي باب أتدري فيما يتطحان؟ رقم (٤٧٦).

خالقها، ولو حاول التعامل معها بدون الوحي لأفسد من حيث ظنه الإصلاح؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

٦- حاور القرآن الكريم الناس وخاصة أصحاب الحضارات في أمر هذه الخلائق، وعلمنا أن لها قدرة على التحاور فيما بينها، وضرب لنا أروع أمثلة الحوار؛ كحوار الهدهد لنبي الله سليمان، وكذلك حوار النملة وغيرها.

٧- هذه الخلائق القائنة الساجدة المسبحة لربها من أعظم الآيات الدالة عليه، فهل يحتاج الإنسان بعدها آيات حتى يؤمن؟! قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧-٣٨]، ومع هذا وجد من يكفر بالله من أصحاب الحضارات على مر العصور، قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجن: ٦].

٨- لقد حاور القرآن الكريم أصحاب الحضارات في أمر آيات الله التي ملأت كونه، وكيف خلقها ودبر أمرها ونظم حركتها ومسيرها واستعبدها له، وجعلها من أعظم الدلالات على جماله وجلاله وكماله، وسخرها لعباده من فضله ورحمته، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجن: ١٣].